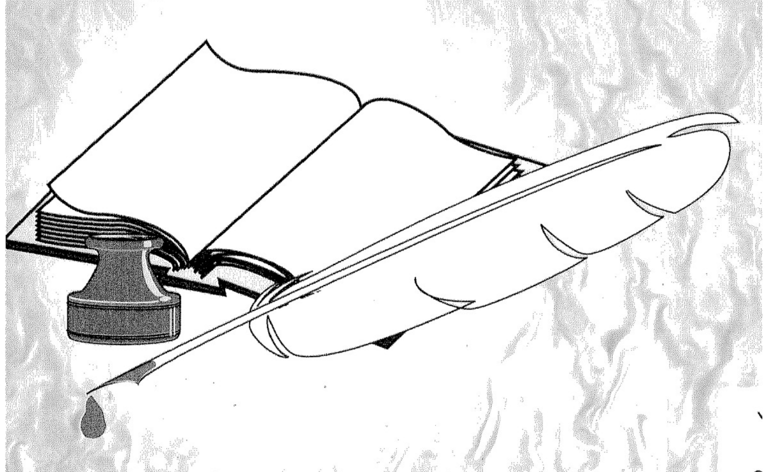
# أشهر الحكماء

# فى التاريخ

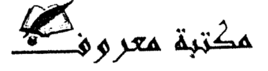


دكتور

سامى محمود

# أشهر الحكماء فى التاريخ

سامى محمود




الإسكندرية ٤٨١٠٨٢٨ / ٤٨٤٦١٢٥ فاكس ٤٨٦٠٠٨٩
القاهرة ٢٦١١٢٢٩ ص.ب ١٢٧٠ الإسكندرية

## المقدمة



فى مسيرة التاريخ يطالع المرء كثيراً من العظماء الذين أثروا الحياة وتركوا وراءهم سيرة عطرة سرى أريجها فى أرجاء المعمورة وعلى امتداد التاريخ الإنسانى كله .. وقد مضينا فى هذه السلسلة عن العظماء نحاورهم ونقف عند انطلاقهم كما نتوقف عند عثراتهم وطرائفهم .

وقد تنقلنا بين هؤلاء العظماء فى صفات تبدو من الغرابة أن تكون لصيقة بهؤلاء العظماء مثل الغباء والخبث والجنون وأحيانا الشذوذ أيضا وما الذى يحمله هذا الأمر من دهشة ..!.. أليس الكمال صفة مستحيلة لدى البشر ؟.

لكننا فى المقابل صادفنا عظماء تجلت الحكمة فى أعمالهم حتى صفت نفوسهم وارتفعت أرواحهم ، فأصبحوا من أصحاب الشفافية والنوارنية فتكشفت لهم من حقائق الحياة وأسرارها مارفعهم إلى مصاف الحكماء فضلاً عن كونهم عظماء .

لم يصلوا إلى هذه الدرجة الرفيعة من السمو والعلو إلا من خلال المجاهدة وتعذيب النفس بالرياضة الروحية والزهد والتقشف والإصرار على الوقوف على حقيقة الوجود مهما تكلف ذلك من جهد ومعاناة .. إن لسان

حالهم يتفق وما قاله المتنبى :

إذا كانت النفوس كباراً تعبت فى مرادها الأجسام

إننا نلمح ذلك واضحا ونحن نطالع قصص حياة هؤلاء الحكماء ومدى ما تخللها من معاناه وماواجهها من الشدة والقسوة والعمل على قهر الرغبة والشهوة حتى تنهار أستار الظلمة فيبدو نور الحقيقة ساطعاً براقا.

إنه صراع داخل كل منا بين جبلتين .. الجبلة الطينية التى تشكّلت منها أجسامنا والجبلة الروحية أو النفسية وهى التى تشكل فينا الوجدان والعقل صراع دائم ومستمر صبغت به طبيعتنا البشرية ، ويمضى الكثيرون منا وهم فى أغلال العنصر الطينى فلا يفسحون سبيلاً إلى النور الروحى يبعث داخلهم ويفجر فيهم طاقة الحب والسعادة الحقة .. ولا زلنا نسمع قول شاعرنا ولكننا لا نتبعه ولا نحفل به .. فالشاعر يقول :

أقبل على النفس واستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

وكن بحبل الله معتصماً فإنه الركن إن خانتك أركان

هذا هو حال الشخصيات العظيمة التى نطالع حياتها وأفكارها فى هذا الكتاب .. إنها الحكمة التى تقتات بها الشخصيات فى كتابنا هذا .. حكمة جاهدت من أجل الإلمام بأشتاتها ثم جاهدت من أجل تقديمها لنفع الإنسان وتكريس سعادته ..

لقد تناولنا من الحكماء أو هؤلاء الذين تركوا بصمة فى تاريخ الإنسانية تناولنا منهم .. " الغزالى " حجة الإسلام والربان الذى قاد سفينة الفقه والدفاع عن الشرع والشريعة عبر بحر هائج متلاطم الأمواج .

أما الفيلسوف المتصوف " ذو النون المصرى " ، فقد كان رجلا متصوفاً

زاهداً وكان له أتباع ومريدون ولاتزال أشعاره الصوفية تحمل دلالات على نقاء الروح وصفاء النفس .. وتناولنا أيضا الإمام الأعظم " أبو حنيفة النعمان " ، هذا الإمام الذى كان على موعد مع عصره فاجتهد كثيرا وعالج العديد من المشاكل الفقهية الشائكة التى لم يعرفها الإسلام من قبل وتعرض بسبب هذه الفتاوى إلى معاناه السجن والألم حتى قضى نحبه مسجوناً وحيدا .

ومما تناولناه كذلك شخصية " الملك عبد العزيز آل سعود "، هذا الرجل العملاق الذى أقام دولة على أرض جزيرة العرب ونشر فى ربوعها العدل والحكمة ولقبه البعض بصقر الجزيرة .. هو شخصية فذّة ماأحوج العرب إليها الآن .. أما " أبو بكر الرازى " ، فقد كان أحد عباقرة العرب الذين علموا أوربا حتى وقت قريب ومن المؤسف أنه فقد بصره بسبب عبقريته فمات كفيفاً فقيراً معدما .. ومن الشرق إلى الغرب تناولنا شخصية الفيلسوف ورائد علم النفس الحديث " وليم چيمس " ، الذى وضع مذهبا جديدا فى علم النفس هو " البرجماتيه" .. كذلك تناولنا " ابن خلدون " ، مؤسس علم الاجتماع قبل أن يعرف علماء الغرب أن هناك علماً يعرف بالاجتماع ، وابن خلدون صاحب فلسفة فى التاريخ أخذها عنه المؤرخون حتى يومنا هذا .

هذه شخصيات لا تزال حيّة بما قدمت للبشرية ، وسوف تظل مذاهبها وأفكارها بمثابة النبراس الذى يهدى الضالين والحائرين إلى طريق الصواب والحكمة .. وهم إضافة إلى ذلك مُثل وقدوة أمام أجيال تتطلع إلى المستقبل بشوق وقلق .. وإننا بهذا الكتاب ندعو الله أن يكون سبحانه قد وفقنا لما أردنا عرضه فنضع أمام القارئ وجبة من نفيس الحكمة وخالد

الفكر لعظماء جادوا بأنفسهم خدمة للإنسانية دون تفريط **أو** إفراط ، فنقشوا أسماءهم بحروف من النور فى سجل الخالدين أبداً ..

* * *

دكتور
سامى محمود

# أبو حنيفة النعمان



## عاش مجتهداً ومات مسجوناً

"كلما بعد الإنسان عن الحاجة اقتربت به الحاجة من الله .. وكلما أغناه الخالق عن الخلق كانت حياته أدنى إلى الحق ..".

هذه كلمات رجل كان غنياً بعلمه قوياً فى الحق عنيداً فى شرع الله لا يحيد عنه .. هذا الرجل جاء فى زمانه لكنه كان حجة لكل زمان جاء بعده .. إنه الإمام الأعظم المجدد والمجتهد الأكبر .. الإمام أبو حنيفة النعمان .

ولد الإمام أبو حنيفة فى عام ٧٠ هجرية وعاش ثمانين عاماً تعدّ من سنوات الانفتاح على العالم شرق وغربه ، فقد انفتح العالم الإسلامى على بلاد فارس وشمال الهند وحدود الصين وغرباً حتى الأندلس ودول أفريقيا .. كان هذا الانفتاح سبيلاً لدخول الكثيرين فى الإسلام وكان ذلك – أيضا – سبيلاً لظهور كثير من المشكلات التى لم تكن معروفة فى زمن الرسول عليه الصلاة والسلام أو فى زمن الصحابة ..

كانت هناك مشكلات غريبه عن الإسلام .. مثلا .. رجل فارسى دخل الإسلام فهل تجوز صلاته إذا قرأ الفاتحة بالفارسية .. ومشاكل فقهية

أخرى خاصة بالزواج والمعاملات التجارية وهذا كله مما أوجده دخول أجناس أخرى فى الإسلام .

لقد خلق هذا كله موقفا صعبا ولم يكن بين فقهاء هذا الزمان من يستطيع أن يجد أو يضع الفتوى الصحيحة لهذه المشكلات .. وربما كان الخوف أيضاً طابعا لكثير من فقهاء هذا العصر فقد جاء فى الحديث الشريف .. من سنّ سنة سيئة له وزرها ووزر من يعمل بها إلى يوم القيامة حتى إن الإمام الشعبى قال :

" لا أدرى نصف العلم "، ولعله بذلك يلتمس لنفسه عذرا عن عدم شجاعته أمام هذه المشكلات الجديدة .

كان المسرح – إذن – مهيئاً لأبى حنيفه ، فهو الإمام المجدد المجتهد الشجاع ، ولم يكن هذا العصر بكل انفتاحه وتوسعه الإسلامى بحاجة إلاّ لإمام تتوفر فيه هذه الصفات .. لكن ذلك لم يكن سهلاً فقد عانى الإمام أبو حنيفة الكثير لكنه كان شجاعاً فى الحق قادراً فى الحجة والشرع مما جعله يخرج من كل معاركه منتصرا مظفراً ..

لم يكن ذلك وليد فراغ فقد كان أبو حنيفة محباً للعلم والعلماء ، كان فى العشرين من عمره لكنه يبدو كشيخ فى الخمسين لورعه ووقاره وتقواه ..

لقد تعلّم منذ صباه على يد مالك بن أنس فقيه المدينة وابن جريج فقيه مكة والأوزاعى فقيه الشام والليث بن سعد فقيه مصر وسفيان الثورى الذى كان يعرف بأمير المؤمنين فى الحديث .. وكان لسفيان مقولة جعلها أبو حنيفة دستوراً له .. فكان الثورى يقول :

" يامعشر العلماء ياملح البلد .. ما يصلح الملح إذا الملح فسد " .

أما أبو حنيفة فقد أضاف إلى هذه المقولة :

"الدنيا فساد والعلماء دواء" ..

كما تلقى أبو حنيفة العلم على يد الإمام الشعبى ، وكان الإمام الشعبى يوصيه دائما بألاّ يكون لغير الله ولا يدعو لغير الإسلام ..

## وكان الثمن غالياً .

تعلم أبو حنيفة منذ طفولته قيمة العمل وأهميته ، كان أبوه تاجر حرير وهو العمل الذى نبغ منه الإمام ، فقد كان يكسب قوته بيده عملاً بقول رسول الله ﷺ :

" أفضل الكسب بيع مبرور وعمل الرجل بيده " .

وعرف الإمام أبو حنيفة التجارة فكان صادقاً أمينا لا يحصل إلا على حق الله سواء كان بائعاً أو مشتريا .. وكان قائده فى عمله بالتجارة مقولة صلوات الله عليه :

" إن التجار يبعثون يوم القيامة فجارا إلاّ من اتقى الله وبرّ وصدق " .

ورغم ما كان يتميز به الإمام الأعظم من ورع وتقوى إلاّ أنه لم يكن زاهداً أو رافضا لزينة الدنيا ومتعها .. فلم يعرف عنه أنه نسى نصيبه من الدنيا .. كان عطره يشمّ من على بعد ويدركه الناس قبل أن يظهر من شدة عطره ، كما كان يرتدى أفخر الثياب ، فهو يقول لأصحابه :

" لا رهبنة فى الإسلام .. فالله تعالى يقول فى كتابه الكريم :

" وأما بنعمة ربك فحدث " .

ورسوله الكريم يقول :

" إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده " .

كان هذا منهاجه ، وليس غريباً أن إحساسه بالعلم والدين قد بدأ معه مبكراً ومنذ نعومة أظفاره ، فنراه وهو فى العاشرة من عمره يبحث عن أبى طفيل " الصحابى الوحيد الذى امتد به العمر إلى زمان أبى حنيفة ، ويقول أبو حنيفة الطفل – وقتها – أريد أن أرى عينين رأتا رسول الله وأصافح يداً صافحت رسول الله ﷺ .

عاصر أبو حنيفة فى صدر شبابه الدولة الأموية ، ثم عاصر الدولة العباسية .. وفى كلا العصرين لم يسلم من الأذى ، لكنه كان قوياً فى حجته صلبا فى آرائه .. قال عن العصر الأموى :

" إن الناس أصبحوا يقتاتون الخوف حتى أصبحوا لا يعقبون غير الجبناء " .. فى هذه الظروف كان عليه إما أن يخاف ويجبن أو ينافق السلطان وأصحاب السلطة .. لكنه اختار الطريق الصعب .. اختار أن يقول : "لا " .. وكان يريد أن يقرن قولته .. "لا" ، بالعمل فيخرج شاهراً سيفه ، إلا أن شيخه الشعبى قال له :

" إن الرأى يبتر الطغيان بما لا يقدر السيف عليه "

لكن يبدو أن آراء أبى حنيفة وما كان يفتى به دفع ثمنه غاليا .

اتخذ أبو حنيفة من القرآن والسنة منهاجه الأساسى الذى تقوم عليه فتواه .. فمن مبادئ القرآن :

" لا إكراه فى الدين " .

"ولا تزر وازرة وزر أخرى " .

وأما السنة فمبادئه فيها .

" لا ضرر ولا ضرار " .

" دع ما يريبك إلى مالا يريبك " .

" أنتم أعلم بأمور دنياكم " .

" وإذا أمرتم بأمر فأتوا منه ما استطعتم " .

كان أبو حنيفة عندما بدأ يجلس فوق منبر **الفتوى** صغيراً لكنه كان قوى الحجة مثابراً على الحق .

ومن خلال قوة حجته وتمرسه وسعة **أفقه استطاع** أن يقهر الجبابرة ولم يلين أمام من مضى فى ضلاله وطغيانه .

فلقد استطاع أن يحوّل والى العراق " **يوسف بن عمر الثقفى** "، من سفاك دماء إلى وال يرعى الله فى رعيته .

وعندما وصله تحذير من دخول الكوفة **موطن إقامته** أثناء أدائه لفريضة الحج حيث بلغه أن الوالى الجديد يتوعده **إلا أنه** رفض أن يترك أهله وقومه يُذبحون وينجو بنفسه ، بل واجه الوالى **الجديد وأقحمه** بحججه ، فأراد هذا الوالى وكان خبيثا ماكرا أن يوقع بأبى **حنيفة بالحيلة** فبعث إليه الخوارج يسألونه ويوقعونه فى فتوى تأخذ بخناقه ، **إلا أن** أبا حنيفة استطاع أن يهزم الخوارج بآرائه وعلمه وفقهه وذكائه ، **ولم يجد** الوالى وسيلة تجاه أبى حنيفة إلا أن يستميله إليه فاستعصى عليه .. **فقرقع** ظهره بالسياط وحبسه وهو شيخ فى الخمسين ثم نفاه بعد ذلك **إلى مكة** .. وعندما بدأت الدولة العباسية عاد إلى موطنه لكنه بدأ جهاداً **جديداً** ..

كان أبو حنيفة يرى الحاكم الأموى **ظالم وفاسد** ومغتصب وكان يرى أيضا أن الخلافة يجب أن تكون شورى **بين المسلمين** فالخلافة عنده لا تورث ، وكان من جراء ما لمسه من **ظلم حكام الدولة** الأموية أن ظل

معارضاً ومقاوماً لخلفاء بنى أمية طيلة ١٨ عاما عاصر فيها الخلافة الأموية..

وعندما تولى العباسيون الحكم ناصرهم ليس لأنهم أولاد عم النبى ولكن لأنهم خلصوا الناس من الحكم الأموى الظالم ، كما كان يحث الفقهاء على مناصرة العباسيين .

وحين قابل أبو حنيفة الخليفة العباسى أبا جعفر المنصور واجهه قائلاً :

" ليس عندنا شئ تخشاه منا مابقيت مع الله وليس فينا شئ نخافك عليه مادمنا مع الله " .

وحين أراده المنصور أن يتولى أمر القضاء كان من رأيه .. " ومن جُعل قاضياً فهو كالغريق " ، ومن ثم فإن ولاية القضاء تورث الهلاك ، فعرض عليه المنصور ولاية بغداد عاصمة الخلافة لكنه اعتذر لشيخوخته ، وبعد عامين عاد المنصور ليعرض عليه القضاء مرة أخرى ، وعندئذ قال له أبو حنيفة بحسم :

" والله لو هددتنى أن تغرقنى فى الفرات أو أن أتولى القضاء لأخترت أن أغرق " .

والحقيقة أن أبا حنيفة كان رافضا لتولى القضاء ليس فى عصر الدولة العباسية فحسب بل وخلال معاصرته للدولة الأمويه أيضا .. فقد كان يرى أن العلماء يحشرون مع الأنبياء لكن القضاة يحشرون مع السلاطين فالقاضى – كما يقول رسول الله ﷺ – يلقى من شدة الحساب يوم القيامة ما يتمنى لو لم يقض .

وعندما أصرّ أبو جعفر المنصور على تولى أبى حنيفة القضاء وأقسم

على ذلك فإن أبا حنيفة أقسم هو الآخر على عدم تولى القضاء .. فقيل له .. ترى أمير المؤمنين يحلف وأنت تحلف فقال لهم :

" أمير المؤمنين أقدر على كفارة يمينه عنى إنما أنا فلن أتولى القضاء ".

ولعل من المعارك الكبيرة التى تعرض لها الإمام الأعظم أبو حنيفة ، عندما اتهموه باعتناقه للفكر الشيعى ، وهو اتهام باطل تماما فالإمام كان له مذهبه السنى والذى حافظ عليه ، بل إننا لا نلمح أثراً للفكر الشيعى فى فقهه بالرغم من حبه الشديد لآل البيت ، فقد خرج مع الإمام زيد وأعطاه ماله وخرج مع محمد الحسن وحارب جعفر الصادق وأوذى إيذاءًا شديداً فحبه لأهل البيت هوى فى قلبه ولكنه لم يغير من فكره ويتحول إلى الفكر الشيعى بل ظل مؤمناً بالخلفاء الأربعة فلم يقدم " علياً كرم الله وجهه "، على أبى بكر أو عثمان ..

وقد خاطب أهل الشيعة بالحجة عندما اتهموا عثمان " باليهودية " ، فقال لأحدهم أريد أن أزوج ابنتك لشخص عظيم الشأن لكنه يهودى فقال له .. كيف أزوج ابنتى ليهودى فقال أبو حنيفة .. إذا لم ترد أن تزوج ابنتك ليهودى فكيف زوج رسول الله ﷺ ابنتيه واحدة بعد الأخرى لعثمان .

أما زوجته فقد كانت مدخلاً آخر لمهاجمته من قبل الحاقدين والكارهين له .. فقد أرادت زوجته أن تكون فقيهة مثله ، فبعض أمور النساء يصعب إطلاع الرجال عليها ، لكنها لم تكن تملك بالطبع سعة الأفق أو واسع العلم ما يمكنها من إطلاق الفتوى الصحيحة دائما .. فقد كانت تفتى مرة فتوى صحيحة ثم تفتى فتوى خاطئة .. كانت رغم ذلك تلقى التشجيع من أبى حنيفة ، لكن نظراً لما أثارته من متاعب للإمام فإنه طلب منها أن تكون مجرد ناقلة لأسئلة النساء فهى تتلقى مايعن لهن من مشكلات أو أسئلة ثم

يجيب عليها أبو حنيفة فتعيدها إلى النساء بعد ذلك تحمل الفتوى الصحيحة الصادرة عن الإمام الأعظم .

كانت النهاية عندما لمس الإمام إسراف العباسيين فى قتل حكام بنى أميه وما اتخذوه من ظلم للناس فأخذ الإمام فى مواجهتهم حتى أنكر عليه أبو جعفر المنصور ذلك ..

ورغم أن أبا جعفر المنصور - الخليفة العباسى - كان يتحاشى أبا حنيفة لأنه كان يعلم أن له فضلاً عليه وأن له أتباعاً وتلاميذ ومريدين ، إلا أنه اضطر فى النهاية إلى جلده وحبسه .

كان أبو حنيفة عندئذ شيخاً فى السبعين ورغم ذلك صبر على السجن ورفض الطعام الذى كان يقدم له ، ولمدة عشرة أيام تلقى مائة سوط ..

وبينما الإمام فى سجنه ، رأى الخليفة المنصور فى منامه الرسول عليه الصلاة والسلام يقول له :

" كيف تفعل ذلك مع أفضل رجال أمتى ؟ " .

فقام فزعاً وأحس بجرم ما فعله فى حق أبى حنيفة فذهب إليه فى السجن وقال له :

سامحنى وسوف أعطيك ما تريد فقال له أبو حنيفة :

- أدخلنى وأبعدنى عن النار .

فقال له أبو جعفر :

- ليس فى إمكانى ذلك .

فقال له أبو حنيفة :

- وأنا لا أريد غير ذلك .

فقال له أبو حنيفة :

– إذا كان على العلويين سوف أخرجهم من السجون سأعطيك العطايا .. و.

وأثناء حديث أبى جعفر معه وجدوه قد مات فقال أبو جعفر باكياً .

– غلبتنى حياً وميتاً .. من يعذرنى منك حيا وميتاً ..

وهكذا مات أبو حنيفة – الإمام الأعظم – فى السجن ، لكن الناس عن بكره أبيهم خرجوا جميعا ليشيعوا الإمام إلى مثواه الاخير – حتى جند الخليفة خرجوا لتشييعه ورفض الناس أن يدفنوا أمامهم قبل أن يسعى الخليفة ابو جعفر بنفسه إلى قبره مصلياً عليه سائلاً روحه الغفران .. ولما كان الجميع قد خرجوا خلف الإمام ابو حنيفة حتى أهل بيت أبو جعفر المنصور نفسه ولم يتبق الا هو .. اضطر الخروج اتقاء لفتنه لا يعلم إلا الله مداها .. بل انه اكرم تلاميذه من بعده ..

كان الإمام الأعظم صاحب مدرستين .. احدهما مدرسة الحديث والأثر والأخرى مدرسة الرأى .. فاما مدرسة الحديث والاثر فقادها من بعده الإمام مالك وتبعه احمد بن حنبل ، أما مدرسة الرأى فقد تولاها من بعده أبو يوسف ..

وبالرغم من ان أبى حنيفة كان ييسر على الاخرين لكنه كان يأخذ نفسه بالورع الشديد والتقوى ، فنجده ينفق ماله على تلاميذه ، فلقد رأى فى أحد دروسه تلميذاً له فى ضائقة مالية فأعطاه كل ما يملك من مال ورجع الى زوجته حزيناً .. فقالت له .. لقد أعطيته كل ما تملك فقال لها .. لا لقد تركته حتى طلب منى المال فوصف ربى تلميذى بالغنى ووصف من لا يعرفهم بالجاهل فانا جاهل .. ويقصد بذلك الآيه الكريمة التى تقول :

" يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف " ..

## المذهب الحنفى ... بعد موت الإمام .

لقد انتشر مذهب أبو حنيفة فى الفقه من خلال استنباطه الجيد للاراء ومحاوراته الجيدة .. فمثلا قوله لمحاوريه .. قراءة الإمام تغنى فى الصلاة عن قراءتكم .. الى إن جاء الناس يقولون له .. كيف يحدث ذلك وهاجوا عليه فقال لهم .. أريد أن يكلمنى أحدكم بالنيابة عنكم .. فقالوا له .. انتخبنا فلانا فقال لهم .. فلانا يكون رأيه رأيكم وفكره فكركم وتلتزمون به .. فقالوا .. هو ذاك .. فقال لهم .. كذلك الإمام فى الصلاة .

لقد نشأ المذهب الحنفى بالكوفة موطن الإمام ثم انتشر فى سائر بلاد العراق ويقال لأصحابه اهل الرأى ، لأن الحديث كان قليلاً بالعراق فاستكثروا من القياس ومهروا فيه ، وللإمام - كما اوضحنا - مقام فى فقه الرأى لا يلحق ، شهد له بذلك أهل جلدته وفى مقدمتهم مالك والشافعى .

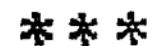
كما يذكر أصحاب طبقات الحنفيه أن هذا المذهب شاع فى بلاد بعيده ومدن عديدة كنواحى بغداد ومصر وبلاد فارس والروم وبلخ وبخارى وأكثر بلاد الهند والسند وبعض بلاد اليمن وغيرها ..

ويقال إن أصحاب أبى حنيفة الذين دونوا مذهبه أربعون رجلاً منهم أبو يوسف وزفر وان أول من كتب كتبه أسد بن عمرو .. ويذكر ضا ان نوح بن إبى مريم عُرف بالجامع لأنه أول من جمع فقه أبى حنيفة ..

وعندما تولى هارون الرشيد خلافة الدولة العباسية فانه ولّى القضاء أبا يوسف صاحب أبى حنيفة ، كان ذلك سنة مائة وسبعين من الهجرة ، وبذلك أصبحت توليه القضاء بيده ، فلم يكن يولى ببلاد العراق وخراسان والشام

ومصر الى اقاصى افريقيا إلا من أشار به وكان لا يولى إلا أصحابه والمنتسبين إلى مذهبه .. وهكذا اضطرت العامة إلى احكامهم وفتواهم وهذا سر انتشار المذهب الحنفى فى هذه البلاد .

أما انتشار المذهب الحنفى فى مصر فقد بدأ مع توليه قضاءها اسماعيل بن اليسع الكوفى من قبل المهدى عام ١٤٦ هـ وهو أول قاض حنفى بمصر وأول من أدخل إليها مذهب أبى حنيفه وكان من خير القضاه .



# ذو النون المصرى



## استاذ المتصوفة الباحث عن الحق

يقول ذو النون .

" اعلم أنه لاشرف أعلى من الإسلام ، ولا كرم أعز من التقى ولا عقل أحرز من الورع ولا شفيع أنجح من التوبة ولا لباس أجلّ من العافية ولا وقاية أمنع من السلامة ولا كنز أغنى من القنوع ولا مال أذهب للفاقة من الرضا بالقوت ، ومن اقتصر على بلوغه الكفاف فقد انتظم الراحة ، والرغبة مفتاح التعب ومطية النصّب والحرص داع إلى التهجم فى الذنوب والشره جامع لمساوئ العيوب ورب طمع كاذب ورجاء يؤدى إلى الحرمان وأرباح تؤدى إلى الخسران " ..

هذه كلمات رجل تعرّف على أعماق النفس وأدرك طبيعتها وفهم الدنيا ودرس خصائصها فأخذ ينشر الخلاص ويدعو إلى الزهد وقس الرغبة ليصل إلى طريق الحق .. وذو النون مثله مثل كثير من الباحثين عن الحقيقة ، فهو كبوذا يجاهد النفس ويقتل شهوتها حتى تصفو وترقى وتتخلص من دناءات الدنيا وصغارها .

وذو النون المصرى واحد من المتصوفة المعدودين ، وكان التصوف فى بداية ظهوره نزعة تدعو إلى الزهد فى الدنيا والتقشف والورع ولكنه اتخذ طابعاً علمياً وفلسفياً بعد ذلك .

ومن أشهر المتصوفة فى التاريخ الحسن البصرى الذى توفى عام ١١٠ هجرية وهو يعد بمثابة مدرسة فى الزهد الإسلامى ، ثم جاء من بعده " ابراهيم بن أدهم " ، المتوفى عام ١٦٢ هجرية و " رابعة العدوية " المتوفاة عام ١٨٢ هجرية وحجة الإسلام الإمام " الغزالى " ، المتوفى عام ٥٠٥ هجرية و " ابن عربى " وابن الفارض وابن تيمية .

وهكذا اتسعت فكرة الصوفية وكثر عدد المريدين حتى بلغت فى مصر ما يزيد عن ثمانين طريقة منها " القادرية " و " الشاذلية " و " الرفاعية " و " الأحمدية " وغيرها .

كان ذو النون من أشهر المتصوفة الذين نقل التاريخ حياتهم وتعاليمهم وإن كان هناك خلاف فى بعض الحقائق أو المعلومات التى وردت عن هذا القطب الزاهد .. لكننا مع ذلك سوف نطوف بما هو مؤكد من حياة ذى النون المصرى ومن مواعظة وما جاء به من نصائح وتعاليم .

هو ثوبان بن إبراهيم ويكنى بأبى الفيض أما لقبه " ذو النون " ، فقد اشتهر به وهى يعنى صاحب الحوت ، ويقال إن هذا الاسم أطلق عليه لكرامة ظهرت له تشبه إلى حد كبير ما حدث لسيدنا يونس عليه السلام .. ومضمون كرامة ذو النون أن امرأة ابتلع ولدها تمساح فجزعت عليه فلما رأى ذو النون حرقتها على ولدها أتى النيل ودعا الله أن يظهر التمساح فخرج إليه فشق بطنه وأخرج ابنها حياً سليماً .. أما سيدنا يونس فقد سمى بذلك لأن الحوت ابتلعه عقاباً من الله لأنه ترك قومه دون إذن من الله

ضجراً من شدة عنادهم وتماديهم فى الكفر ثم أنجاه الله تعالى من هذا الغم .. يقول سبحانه وتعالى فى سورة الأنبياء

" وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾

الغم وكذلك ننجى المؤمنين " . { الأنبياء ٨٣ – ٤٨ }

ويرجع أصل ذى النون إلى بلاد النوبة جنوب مصر ، وكان أبوه مولىً لإسحق بن محمد الأنصارى ، ولذى النون ثلاثة أخوة هم ذو الكفل وعبد البارى وعبد الخالق .

وقد ولد ذو النون بإخميم فى صعيد مصر حوالى عام ١٥٥ هجرية ، وكانت إخميم عند مولده بلداً كبيراً مشهوراً بصناعته وآثاره الفرعونية ، وفى أخميم تعلم ذو النون ودرس كل شئ فى رباها .. وفيها أيضا تعرض لاضطهاد فقهائها . . أما وفاته فكانت عام ٢٤٥ هجرية وكان قد بلغ التسعين من عمره .

وكان ذو النون قد توفى فى مدينة الجيزة وحمل فى مركب إلى إخميم حيث دفن فى مقابر أهل المعافر بالقرافة الكبرى بالقرب من قبر عقبة بن عامر الجهنى أحد أصحاب النبى عليه السلام .. ويقال إن ذا النون وعقبة وعمر وبن العاص دفنوا فى قبر واحد .

ويقول " السلمى "، عن جنازة ذى النون .. " إنه عندما مـ ت أظلت الطير الخضر جنازته ترفرف عليه إلى أن وصل إلى قبره فلما دفن غابت " .

ومما يذكر عن وفاته .. أن بعض أصحابه دخلوا عليه وهو يحتضر فقالوا له .. كيف نجدك ؟ .. فقال .

أموت وماماتت إليك صبابتى          ولا رويت من صدق حبك أوكارى

وقالوا له أوصنا .. فقال ..

" لا تشغلونى فإنى متعجب من محاسن لطفه " ..

## حياته ... ونشأته ..

بدأ ذو النون حياته محباً للعلم شغوفاً الى المعرفة ، كان يتعلم من كل شئ حتى الأحجار والنباتات ، وقد حفظ القرآن ودرس علوم الشريعة صغيراً ، ومما عرف عنه انه منذ شبابه الباكر وهو كثير الطواف ، فكم قطع من قفار وصحارى يلتقى بالزهاد والعلماء يأخذ عنهم وينشد الحكمه أينما كانت .

فى بداية عهده اشتغل بعلم الحديث ودرس موطأ مالك وأخذ يروى عنه .. لكنه لم يلبث أن أنصرف عن علم الحديث .. وقد سئل عن سبب ذلك فقال :

" للحديث رجال ، وشغلى بنفسى استغرق وقتى والحديث من أركان الدين ولولا نقص دخل على أهل الحديث والفقه لكانوا من أفضل الناس فى زمانهم ، الا تراهم بذلوا علمهم لأهل الدنيا يستجلبون به دنياهم فحجبوهم واستكبروا عليهم وافتتنوا لما رأوا من حرص أهل العلم والمتفقهين عليها فحانوا الله ورسوله ، وصار اثم كل من تبعهم فى عنقهم ، جعلوا العلم فخاً للدنيا وسلاحاً يكسبونها به بعد أن كان سراجاً للدين يستضاء به " ..

ولعلنا من هذا الكلام تتلمس أسباب انصراف ذى النون عن علوم الحديث وبقية علوم الشريعة والفقه إلى نفسه يفتش فيها بحثاً عن الحقيقة التى أصبح ينشدها ويجد فى طلبها والوقوف على أسرارها .

لقد كانت الحيرة التى تستحوذ على ذى النون وهو يحاول جاهداً البحث

عن الحقيقة هى التى دفعته إلى الاشتغال بالكيمياء والطب ، واستطاع بالفعل الإلمام بأطراف كثيرة من هذه العلوم حتى أنه وضع كتابين فى علم الكيمياء هما كتاب الركن الأكبر وكتاب الثقة فى الصنعة .. أما المستشرق الفرنسى " كارادى فو " ، فيقول إن له ثلاثة كتب اخرى فى نفس العلمين وهما ..

– المجربات ويحتوى على إرشادات طبية وتجارب كيمائية وتمائم سحرية وطلاسم وعزائم .. ويوجد هذا الكتاب فى مكتبة باريس .

– أشعار فى حجر الكيمياء .. ويوجد بمكتبة باريس أيضاً .

– مناظرة بينه وبين تلميذه يعقوب فى حجر الحكماء ويوجد بمكتبة "برلين" ، كما لازم ذو النون فى فترة شبابه " البرابى " ، وهى المعابد الفرعونية القديمة فقد كان يعكف على دراسة النقوش المصرية القديمة والمكتوبة على جدران هذه المعابد ، وكانت هذه الرموز تنطوى على كثير من الأسرار والطلاسم والتى نجح ذو النون كثيراً فى إدراك كنهها وفهم معانيها

ومما يقال إن ذا النون سبق الفرنسى " شامبليون " ، فى فك رموز اللغة الهيروغليفية القديمة وأن كان يقرأ ما دوّنه الفراعنة على جدران المعابد رسوماً وأشكالاً .. وقد ذكروا أنه ضمن ما قرأ على هذه المعابد عبارة " يقدر المقدر والقضاء يضحك " .. وكان أن صاغ على ضوء هذه العبارة بيته الشعرى :

تدبر بالنجوم ولست تدرى    ورب النجم يفعل ما يريد

لم يكن ذلك ليرضى شغف ذى النون ورغبته فى المعرفة الشاملة والحقيقة الكلية لهذا العالم – فقد رأى ذو النون أن اشتغاله بالحديث أو علوم الطب والكيمياء لا يوفر له إلا معرفة جزئية .

لذلك فكر فى أن يسلك الطريق الوحيد الذى يحقق له ما يريد .. كانت الصوفية هى هذا الطريق ، لذلك فقد عمد إلى طريق الزهد وقطع العلائق والعبادة والتفكر فحينما تصفو النفس من الشوائب وتتطهر تكون مستعدة لتلقى فيض من الله .. عندئذ يتوصل المرء إلى المعرفة من خلال الإلهام الذى يهبه له الله ..

وفى مجال التصوف يعد ذو النون من الطبقة الأولى التى تلت طبقة التابعين ، ويعتبر ذو النون ممن أسسوا صرح التصوف وأنشأوا مدرسته ، لذلك لم يكن غريباً أن يحتل بين أرباب التصوف منزلة رفيعة مرموقة .. يقول عنه أبو نعيم :

" ومنهم العلم المضى والحكم المرضى ، الناطق بالحقائق ، الفائق للطرائق ، له العبارات الوثيقة ، والإشارات الدقيقة ، نظر فعبر وذكر فازدجر أبو الفيض ذو النون بن إبراهيم رحمه الله " ..

أما " المناوى " صاحب الكواكب الدرّية فإنه يقول عن ذى النون :

" ذو العبارات الوثيقة ، والإشارات الدقيقة ، والصفات الكاملة والنفس العالمة والعاملة والهمم الجلية والطريقة المرضيّة والمحاسن الجزيلة المتبعة والأفعال والأقوال التى لا تخشى منها تبعة ، زهت به مصر وديارها وأشرق بنوره ليلها ونهارها " .

## ذو النون المصرى ... أزمات ومحن ..

لم تكن حياة ذى النون المصرى زهداً وتصوفاً فحسب بل إنه صادف معارك وأزمات كاد أن يدخل السجن بسببها ..

فقد أتى ذو النون بتعاليم جديدة أنكرها عليه العلماء والفقهاء مما جعلهم

ينتقدوه ويكيدون له .. وأحدث موقفهم هذا لذى النون جرحاً شديدا الغور فقال فى مسلكهم :

" أدركنا الناس وأحدهم كلما ازداد علماً ، ازداد فى الدنيا زهداً وبغضا وأنتم اليوم كلما ازداد أحدكم علماً ازداد فى الدنيا طلباً ومزاحمة ، وأدركناهم وهم ينفقون الأموال فى طلب العلم ، وأنتم اليوم تنفقون العلم فى تحصيل المال " ..

ثم اشتد فى نقده ومهاجمتهم .. فيقول :

" قد غلب على العباد والنساك والقراء فى هذا الزمان التهاون بالذنوب ، حتى غرقوا فى شهوة بطونهم وفروجهم ، وحجبوا عن شهود عيوبهم فهلكوا وهم لا يشعرون أقبلوا على أكل الحرام وتركوا طلب الحلال ، ورضوا من العمل بالعلم ، يستحى أحدهم أن يقول فيما لا يعلم .. لا أعلم .. هم عبيد الدنيا لا علماء الشريعة ، إذ لو علموا بالشريعة لمنعتهم عن القبائح ، إن سألوا ألحوا وإن سُئلوا مسألة لبسوا الثياب على قلوب الذئاب ، واتخذوا مساجد الله التى يذكر فيها اسمه لرفع أصواتهم باللغو والجدال والقيل والقال واتخذوا العلم شبكة يصطادون بها الدنيا إياكم ومجالستهم " .

كان هذا النقد الشديد الذى وجهه ذو النون لفقهاء عصره والعلماء فيه إضافة إلى ما أحدثه من تعاليم وآراء جديدة فى علم الباطن ، كان هذا كله كفيلاً بإثارة البغض والكراهية ضده ، وكان أن أتهموه بالزندقة ، وسعوا به إلى " عبد الله بن الحكم " ، شيخ علماء المالكية بمصر و" ابن أبى الليث " ، قاضى مصر وانتهى به ذلك إلى إرساله إلى عاصمة الخلافة فى بغداد مكبلاً فى الحديد .

عندما وصل إلى بغداد أودع سجن " المطبق " ، إلا أن مساعى الصوفية

واتصـالهم بالـخليفة " المـتوكل " ، جعلته يستدعيه من السـجن ليسمـع منه ، وعندئذ انطلق ذو النون بأسلوبه وما ينطق به من مواعـظ وحـكمه حتـى إن " المـتوكل " ، يتـأثر جدا بمـا حـدث له ويرسله إلى مصـر معززاً مكـرمـاً .. يحكى ذو النون عن هذه التجربة المؤلمة فيقول :

"لما حملت فى الحديد لقيتنى امرأة زَمِنَة ( مريضـة ) ، فقالت لى : إذا دخلت ـلى المتوكل فلا تـهبـه ولا ترى أنه فوقك ولا تـحتج لنفسك مـحقـا كنت أو متـهماً ، لأنك إن هبته سلطه الله عليك ، وإن حاججت عن نفسك لم يزدك ذلك إلاّ وبالاً لأنك باهت الله فيما يعلمه ، وإن كنت بريئاً فادع الله تعالى أن ينتصر لك ولا تنتصر لنفسك فيكلك إليها فقلت لها ... سمعاً وطاعة .

فلما دخلت على المتوكل سلمت عليه بالخلافة .. فقال لى :

" ما تقول فيما قيل عنك من الكفر والزندقة ؟ .. فسكت .. فقال وزيره :" هو حقيق عندى بما قيل فيه ".. ثم قال لى : لم لا تتكلم ؟.. فقلت .. يا أمير المؤمنين .. إن قلت .. لا ، كذبت على المسلمين وإن قلت .. نعم كذبت على نفسى بشئ لا يعلمه إلا الله تعالى منى ، فافعل أنت ما ترى فإنى غير منتصر لنفسى .. فقال المتوكل : هو رجل برئ مما قيل فيه .. فخرجت إلى المريضة العجوز فقلت لها : جزاك الله عنى خيرا ، فعلت ما أمرتنى به ، فمن أين لك هذا ؟

فقالت : من حيث ماخاطب به الهدهد سليمان عليه السلام .."

المـهم أن هذه المقابلة كـانت شديدة الأثر فى نفس " المتوكل " ، فقد حكى عنه أنه قال : " إن كان هذا زنديقاً فما على وجه الأرض مسلم " وكان المتوكل يذكره دائماً مع الصالحين والأولياء .

ولعلنا أيضاً نشير إلى شجاعة ذى النون وقوته فى الحق ، وهى شجاعة

لا تنقص الصوفى الذى با ع الدنيا من أجل الآخرة وارتضى منها - أى الدنيا -- بزاد يومه لا ينشد له مزيداً .. يقول أبو حازم وكان من كبار المتصوفة :

" إنما بينى وبين الملوك يوم واحد ، أما أمس فلا يجدون لذته ، وأنا وهم من غد على وجل - أى خوف وترقب - وإنما هو اليوم .. فما عسى أن يكون اليوم ؟" ..

لم تكن تلك هى المحنة الوحيدة التى تعرض لها ذو النون ، لكن كانت هناك أزمة أخرى اضطر فيها إلى النفاق عملابمبدأ التقية.. فما هى هذه المحنة ؟..

كانت هذه المحنة بشأن خلق القرآن ، فقد كان هذا امتحاناً تعرض له كل علماء المسلمين أيام خلافة المأمون والمعتصم والواثق .. وكلهم من خلفاء الدولة العباسية .. فقد كان كل من لا يقرّ برأى المعتزلة وقولهم بأن القرآن مخلوق - أى موضوع وليس من عند الله - يعذب ويضطهد .

وكان " محمد بن أبى الليث " ، قاضى مصر من أشد الناس تحمساً لهذا المذهب وكان حنفى المذهب يكره المالكية والشافعية ، فاستغل هذه المحنة للتنكيل بكل من يقول غير ذلك حتى إن بعضهم اضطر إلى الهرب إلى اليمن ومنهم ذو النون ، ولكن عندما عاد قبض عليه وحقق معه فأقرّ بما يقوله المعتزلة ، وهذه سقطة منه لكنه أخذ فيها بمبدأ التقية وهو المبدأ الذى جاء به الفقيه " ابن تيميه " .

هذه هى بعض ماعرفه من محن وعنت ، لكن للأسف لا يذكر لنا التاريخ المزيد .. لكن المعروف أن الفترة التى عاش فيها ذو النون كانت فترة مليئة بالصراعات الفكرية والسياسية زمن الخلافة العباسية وكثيراً - ما تعذّب

البعض أو قتلوا بسبب الشبهات أو أساليب تنطوى على الافتراء والكذب .. وليس من الغريب أو الشاذ أن يكون ذو النون واحداً ممن تعرضوا لذلك ..

## تعاليمه وأفكاره فى التصوف .

يقول ذو النون فى مناجاة روحية .. " إلهى ، ما أصغى إلى صوت حيوان ولا حفيف شجر ولا خرير ماء ولا ترنم طائر ولا تنعم ظل ولا دوىّ ريح ولا قعقعة رعد ، إلا وجدتها شاهدة بوحدانيتك ، دالة على أنه ليس كمثلك شئ ، وأنك غالب لا تغلب وعالم لاتجهل وحليم لاتسفه وعدل لاتجور "

هذه الكلمات الصوفيه الزاهدة توحى بما تبلورت عليه روح ذى النون من شفافية ونقاء وإدراك للحق والحقيقة ، ولقد ساعده على ذلك أنه كان كثير السفر والترحال .. لقد عمل بقوله سبحانه وتعالى :

" أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ {الحج ٤٦}

وقوله تعالى فى سورة آل عمران :

" قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ بة { آل عمران }

لقد ضرب ذو النون فى فيافى الأرض وصحاريها ، زار بلاداً وطوى أقطاراً بحثاً عن العلم والمعرفة .. فى مصر طاف ربوعها من أقاصى الصعيد إلى جبل المقطم والفسطاط .. كما طاف القدس واليمن والحجاز والمغرب والعراق وبلاد الشام .

وهكذا تنقل فى الوديان والشطئان والجبال والبوادى والقفار يروى ظمأ روحه العطشى إلى النور والمعرفة ، وكان فى طوافه يقابل الرهبان والعباد

فى الصوامع والمغارات ، يسألهم ويسألونه ويحاورهم ويحاورونه عن العبادة والمناجاة وعن سرّ الحياة وخلق السموات والأرض .. وهو فى كل ذلك متأمل شارد فى ملكوت الخالق العظيم وكأنه يؤدى صلوات فى كل لحظة بينما يتبلور مذهبه فى التصوف رويداً رويداً .

يقول فى إحدى مناجاته وابتهالاته الروحية : " سيدى ، بك تقرّب المتقربون فى الخلوات ولعظمتك سبحّت الحيتان فى البحار الزاخرات ولجلال قدسك تصافحت الأمواج المتلاطمات أنت الذى سجد لك سواد الليل وضوء النهار ، والفلك الدوّار والبحر الزخّار والقمر النوّار والنجم الزّهار وكل شئ عندك بمقدار لأنك الله العلى القهار .".

ومما قاله ذو النون شعراً :

| | |
|---|---|
| لا ربــــك ينســـــاك | لا رزقـــــك يعـــــدوك |
| ومن يرغب إلى النـــاس | هو إلى النـــاس مملـــوك |
| ليكـــن سعيك للـــــه | فـــان اللـــه يـــكفيك |

كان مذهب ذى النون فى التصوف قائماً على ما جاء بالشريعة وهى التى تعتمد على كتاب الله وسنة رسوله .. فمذهبه سنىّ يقوم على الشريعة .. وهو يقول :

" من علامات المحب لله متابعة حبيبه (ﷺ) ، فى أخلاقه وأفعاله وأوامره وسننه "..

وهو يقول :إن مذهبه يقوم على أربع هى .. حبّ الخليل وبغض القليل واتباع التنزيل وخوف التحويل .. معنى ذلك .. أن مذهبه يقوم على حب الله ورسوله والزهد فى متاع الدنيا القليل والعمل بالتنزيل الحكيم والخوف من

النكوص عن الطريق بمتابعة هوى النفس .

ولتحقيق مذهبه ذى النقاط الأربع ، يجب التغلب على ستة عقبات كما يرى ذى النون .. وهذه العقبات هى ..

١ - ضعف النية فى العمل للآخرة .

٢ - صارت أبدانهم رهينة لشهواتهم .

٣ - غلبهم طول الأمل مع قرب الأجل .

٤ - آثروا رضا المخلوقين على رضا الخالق.

٥ - اتبعوا آهوا ءهم ونبذوا سنة نبيهم ﷺ .

٦- جعلوا زلاّت السلف حجة لأنفسهم ودفنوا كثير مناقبهم .

والسالك فى طريق الخلاص والتصوف درجات عليه أن يجتازها حتى يصل ويصبح من الواصلين .. يرى ذو النون أن هذه الدرجات هى .. التوبة ثم الخوف ثم الزهد ثم الشوق ثم الرضا ثم الحب وأخيرا المعرفة ..

هذه هى المقامات التى يتدرج منها السالك فى طريق الصوفية والمقصود بالمقام مقام العبد عند ربه وهى تتحدد بما يقوم به من عبادات ومجاهدات ورياضات .. ويشرح ذو النون معنى هذه الدرجات أو المقامات فيقول :

" بالتوبة تطَهّروا من الذنوب وبالخوف جازوا قناطر النار وبالزهد تخففوا من الدنيا وتركوها وبالشوق استوجبوا المزيد وبالرضا استعجلوا الراحة وبالحب عقلوا النعم وبالمعرفة وصلوا إلى الأمل " .

## من كلماته ... ووصاياه .

كثير مما قاله ذو النون فى صورة مناجاة بينه وبين ربه ، كما جرت على لسانه كثير من الوصايا والحكم .. ونحن نورد بعضها ، كما نورد بعضاً من شعره الصوفى وبعضاً من محاوراته التى تنطوى على مواعظ وروحانية عظيمة .

* ليس العجب ممن ابتلى فصبر ، وإنما العجب ممن ابتلى فرضى .

* ياأخى ، كن بالخير موصوفاً ، ولا تكن للخير وصّافاً ..

* إن الله تعالى أنطق اللسان بالبيان وافتتحه بالكلام وجعل القلوب أوعية العلم ، ولولا ذلك لكان الإنسان بمنزلة البهيمة ، يومئ بالرأس ويشير باليد .

* لحّنا فى العمل وأعربنا فى القول ، فكيف نفلح ؟ .. صدور الأحرار قبور الأسرار .. إن الطبيعة النقية يكفيها من العظمة رائحتها ومن الحكمة إشارة إليها .. إنما يختبر ذو البأس عند اللقاء وذو الأمانة عند الأخذ والعطاء وذو الأهل والولد عند الفاقة والبلاء والإخوان عند نوائب القضاء .

* إلهى كيف أحب نفسى وقد عصتك ، وكيف لاأحبها وقد عرفتك؟

* من أجوبته السديدة ، وقد سأله رجل من أهل البصرة .. متى تصح لى عزلة الخلق ؟.. قال : " إذا قويت على عزلة نفسك " ..

* يخاطب مريديه فيقول : " يامعشر المريدين ، من أ [illegible] منكم الطريق فليلق العلماء بالجهل والزهاد بالرغبة والعارفين بالصمت " .ويعلق الإمام الشعرانى على قول ذى النون هذا شارحاً : إنه يطلب من المريدين ذلك حتى يزيدهم العلماء علماً والزهاد زهداً والعارفين معرفة ..

* وكان ذو النون قد لقى شيخاً متعبداً فى غار فدار بينه وبين الشيخ

حوار على النحو التالى :

ذو النون : السلام عليكم .

الشيخ : وعليكم السلام ياذا النون .

ذو النون : كيف عرفتنى ؟

الشيخ : بمعرفة الحبيب .

ذو النون : كيف الطريق إلى الله ؟

الشيخ : دع طريق الخلاف والاختلاف .

ذو النون : أليس اختلاف العلماء رحمة ؟

الشيخ : إلا فى تجريد التوحيد .

ذو النون : ما تجريده ؟

الشيخ : فقدان رؤية ما سواه .

ذو النون : وهل يأسف العارف على شئ غير الله ؟

الشيخ : وهل يغيب عنه طرفة عين حتى يشتاق ؟

ذو النون : ما اسم الله الأعظم ؟

الشيخ : أن تقول " الله " وأنت تهابه .

ذو النون : كثيراً ما أقوله ولا تداخلنى هيبة .

الشيخ : إنك تقول "الله " من حيث أنت لا من حيث هو .

ذو النون : عظنى .

الشيخ : حسبك من الموعظة علمك بأنه يراك .

ذون النون : فيم تأمرني ؟

الشيخ : ياذا النون ، الفرار هيّن وممارسة الناس ودعوتهم إلى عبادة ربهم عبادة أنت لها لو أردت وإنما اصبر وصابر وتوكل على الحى الذى يراك .

* وقد اعتلّ أحد مريديه فكتب إليه ليدعو له .. فرد عليه ذو النون .

" سألتنى أن أدعو الله أن يزيل عنك الغم ، واعلم يا أخى أن العلة مجازاة يأنس بها أهل الصفاء والهمم والضياء ، ومن لم يعد البلاء نعمة فليس من الحكماء ومن لم يأمن الشفيق (الله) على نفسه فقد أمن أهل التهم على أمره فليكن معك يا أخى حياء يمنعك من الشكوى والسلام ".

* وقد كتب إليه الوليد بن عتبة الدمشقى كتاباً يسأله عن حاله : فرد عليه ذو النون يقول :

" كتبت إلىّ تسألنى عن حالى ، فما عساى أخبرك به من حالى ؛ وأنا بين خلال موجعات ، أبكانى منهن أربع .. حب عينى للنظر ، ولسانى للفضول وقلبى للرياسة وإجابتى إبليس - لعنه الله فيما يكرهه الله .. وأقلقنى منها .. عين لا تبكى من الذنوب المنتنة وقلب لا يخشع عند نزول العظة وعقل وهن فهمه فى محبة الدنيا ومعرفة كلما قلبتها وجدتنى بالله أجهل .. وأضنانى منها .. أنى عدمت خير خصال الإيمان الحياء وعدمت خير زاد الآخره ، التقوى ، وفنيت أيامى بمحبتى للدنيا وتضييعى قلباً لا أقتنى مثله أبداً ..

* ومن شعره الذى ينطوى على حكمة .

لبست بالعفة ثوب الغنـــى      فصرت أمشى شامخ الرأس

انطق لى الصبر لسانى فما أخضـــع بالقـــول لجلاسى

إذا رأيت التيه من ذى الغنى تهتت علـــى لتائه بـــاليـاسى

* ويقول فى شعر آخر :

أحســن من قيـنة ومزمار فى غسق الليل نغمة القارى

ياحسنه والجليل يسمعه بطيب صوت ودمعه جارى

وخده فى التراب منعفر وقلبه فى محبــــة البـارى

يقول يا سيدى وياسندى شغلنى عنك ثقـــل أوزارى

* * *

# الغـزالـى



## حجة الإسلام المنقذ من الضلال

يقول الغزالى .

" نظرت إلى نفسى فرأيت كثرة حجبها فدخلت الخلوة واشتغلت بالرياضة والمجاهدة أربعين يوماً فانقدح لى من العلم ما لم يكن عندى أصفى وأرق منه مما كنت أعرفه فنظرت فيه ، فإذا فيه قوة فقهية ، فرجعت إلى الخلوة ، واشتغلت بالمجاهدة والرياضة اربعين يوماً فانقدح لى علم آخر أرق وأصفى مما حصل عندى أولا ، ففرحت به ثم نظرت فيه فإذا فيه قوة نظرية فرجعت إلى الخلوة ثالثا أربعين يوما فانقدح لى علم آخر هو أرق وأصفى فنظرت فيه فإذا فيه قوة ممزوجة بعلم " .

هذه كلمات رجل من أهل الدنيا والآخرة ، عرف الدنيا وما بها من حجب تذهل النفس عن أن ترى النور والحكمة فأراد أن ينقيها من شوائبها .. وهذه – عموما – هى صفة عامة فى كل الحكماء والفلاسفة الذين أرادو الوصول ..

لقد كانت نشأة الغزالى فترة قيام الدولة العباسية هذه الدولة التى كان

لسانها عربى لكنها كانت فارسية فى التفكير .. كان المجتمع العباسى مزاجاً غريباً من أمم شتى تجمعها عقيدة واحدة وتفرقها ألوان من التفكير والتاريخ والحضارات ..

لقد تحمس مفكرو هذه الدولة وفلاسفتها فأخذوا يترجمون ألواناً من أدب وفلسفة اليونان والإغريق وأضافوا هذا كله إلى المعارف الإسلامية فجاء ذلك وكأنه بعث جديد لحياة فكرية سريعة ومثيرة تأثر بها المجتمع كله .

وهكذا بدأت روح جديدة تسرى فى أرجاء الدولة المترامية الأطراف ، فتميز الفكر فيها بحرية واسعة وبدع وآفاق لم تكن موجودة أو معروفة فى الدولة الأموية السابقة .

ورويداً رويداً زادت مساحة الحرية فى الدولة العباسية حتى تحولت إلى ترف فى الفكر والمزاج والثقافة وتحول هذا الترف إلى إسراف وجموح .. وتمخض هذا كله عن ظهور فرق ومذاهب لكل منها فكره واعتقاده .. ولم تلبث هذه الفرق طويلاً حتى بدأت فى التطاحن والصراع ..

مَن خلال هذا كله أحس رجال الدين بالخطر وأحسوا أكثر بأن سلطانهم الدينى مهدد بالزوال ، حاولوا أن يستعيدوا هذا السلطان فأطلقوا اقلامهم وألسنتهم ، لكن هذا كله لم يغير من الأمر شيئا ، فقد كانوا متفرقين بينهم خصومة وعداء .. فالحنفية تناهض الشافعية فى المشرق والمالكية تطرد ولا تطيق سواها فى المغرب والأندلس ، بينما الحرب مشتعلة بين الأشعرية والمعتزلة وبين الباطنية والسنة ..

بين هذه الأجواء الملبدة والأفكار المتصارعة كانت نشأة الغزالى ، فهو – إذن – رجل جاء فى موعده مع الزمن والقدر فى وقت واحد .. كان لوجوده ضرورة وأمل .. وقد استطاع ذلك حقاً حتى خلد كحجة للإسلام

وهذا ما سوف نتعرف عليه من خلال هذه الصفحات الملتهبة عن هذا الثائر الإسلامى الكبير .

## نشأته الأولى وحياته .

هو أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالى ، ولد فى مطلع عام أربعمائة وخمسين من الهجرة - ١٠٥٩ ميلادية - ببلدة طوس من أعمال خراسان بفارس .. إذن فالغزالى من أصول فارسية وليست عربية ..

وقد ولد الغزالى لأسرة فقيرة تكاد تجد قوت يومها ، فوالده كان يعمل نساجاً فى مغزل كما كان يعمل خادماً لدى رجال الدين والفقهاء وهم من كان يجلّهم ويحترمهم بشدة .. ولاشك أن هذه النشأة كان لها عظيم الأثر فيما سار عليه الغزالى بعد ذلك من شغفه فى طلب العلم وإصراره على المعرفة والاستزادة من المعارف والثقافات .

لم يمنح العمر فرصة كبيرة للوالد حتى يرى ابنه الغزالى وابنه الآخر أحمد كما تمنى ، فقد توفى وتركهما صغيرين ، لكنه قبل الوفاة عهد بهما إلى رجل صوفى فقير وأوصاه بأن يعلمهما .. فقد قال فى وصيته لصديقه الصوفى .. " كانت امنيتى فى الحياة أن أتعلم الخط فأريد منك أن تحقق أمنيتى فى نجلىّ هذين " .. وترك الوالد مع الوصية قليلاً من المال ليساعد الصوفى على تحقيق أمنية الأب .

ونفذ الصوفى الوصية وتعهد الأخوين بالعلم حتى نفد ما تركه أبوهما من مال .. فقال لهما :

" اعلما أننى أنفقت عليكما ما كان لكما .. وأما أنا فرجل من الفقر والتجريد بحيث لا مال لى فأواسيكما وأصلح حالكما ، فما لكما ألاّ تلجأ إلى

مدرسة ، فإنكما طالبان للفقه عساه يحصِّل لكما مقدار قوتكما ، حتى كان الغزالى يقول كلما عاودته تلك الذكرى .. طلبنا العلم لله فأبى إلاّ أن يكون لغير الله " .

وهكذا مضى الغزالى إلى إحدى مدارس العلم الدينى فى بلدته فقرأ الفقه خلالها على " أحمد بن محمد الطوسى " ، وأراد الاستزادة من العلم فهاجر إلى "جرجان" ، حيث تتلمذ على يد العلاّمة " أبى نصر الإسماعيلى " ..

بيد أن حادثة قد جرت وتركت أثراً بالغاً عند الغزالى ، ويروى الغزالى هذه الحادثة بنفسه فى كتابه " المنقذ من الضلال " فيقول :

" قطعت علينا الطريق وأخذ اللصوص جميع مامعى ومضوا فتعقبتهم ، فالتفت إلىّ مقدمهم – زعيمهم – وقال .. ارجع ويحك وإلاّ هلكت فقلت له : أسألك بالذى ترجو السلامة منه أن ترد علىّ تعليقتى فقط فما هى بشئ تنتفعون به ، فقال لى .. وماهى تعليقتك ؟.. فقلت : كتب فى تلك المخلاة هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علومها .. فضحك وقال : كيف عرفت بعلمِها وقد أخذناها منك فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم ، ثم أمر بعض أصحابه فسلم لى المخلاة .. فتركت هذه الحادثة فى نفسى أثرا كبيراً ، وقلت فى نفسى : هذا مستنطق أنطقه الله ليرشدنى به فى أمرى ، فلما وافيت طوس أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميع ما علقته وصرت بحيث لو قطع على الطريق لم أتجرد من علمى " ..

من " جرجان " انتقل الغزالى إلى " طوس " ، وهو عندئذ ماضٍ إلى العلم يحفظه ويفهمه حتى إن قطع لص أو قاطع طريق وأخذ ما معه من كتب وأوراق لم يتجرد مما فى عقله من علم ومعرفة .

لم يلبث الغزالى أن ضاق "بطوس" ، فلم تقنعه علوم الفقه الجافة أو آراء

الفقهاء الجامدة ولم ترض روحه الظامئه بهذا الجو التقليدى ، ومرة أخرى يهاجر الغزالى من " طوس" . إلى نيسابور " ، زهرة العلم وقبلة العلماء فى هذا العصر .. وفى " نيسابور " ، اتصل بإمام الحرمين " أبى المعالى الجوينى "، عالم عصره فى التوحيد والواصل فى علم الأشعرية وأصول الجدل والمنطق .

فى " نيسابور "، عرف الغزالى مجتمعاً جديداً مزدحماً بالعلماء لكنه فى الوقت نفسه كان حافلاً بالنفاق وحب الدنيا .. لقد بدأت هذه الروح العظيمة السامية داخل الغزالى تتفتح وتتبلور فالطريق بات واضحا وهدفه الذى يريد أصبح بارزاً أمامه ..

لقد شاهد الغزالى فى " نيسابور "، أخلاق العلماء والفقهاء فإذا هى ضروب عجيبة من الرياء والنفاق وألوان مبتكرة من الجشع والتهالك على متا ع الدنيا فشك الغزالى فى أخلاقهم كما شك فى علومهم .. وهكذا انتهى إيمانه بالعلم التقليدى وضعف إقباله على الفقه .

اتجه الغزالى إلى الفلسفة فقد يجد فيها ماينشده ، لكنها هى الأخرى خذلته ولم يجد فيها ما يشبع إيمان قلبه وعقله فهى لا ترضى القلب ولا تشبع ما يحتاجه من سلام وأمان .. وهكذا تحرر الغزالى من كل قيد فكرى فانطلق حراً طليقاً ينشد مايراه متأملاً بين المذاهب والنحل المختلفة غير مثقل بميراث أو قيد ..

لقد تحوّل الغزالى بين ليلة وضحاها إلى ساخر متهكم شديد الجدل والمناقشة فهو ينقض المذاهب ويتهكم على أصحابها .. لكنه فى كل ذلك عميق العلم لا يبارى فى الجدل . كما أنه أوفى أسلوباً بارعاً وتعلماً ساحراً وقدرة عظيمة على العرض والاقناع .. لذلك لم يكن غريباً أن يخشاه أبناء

جيله من العلماء ويُعمل له ألف حساب فى المناظرات والاجتماعات

لم تخل حياة الغزالى فى " نيسابور " ، من تطاحن وصراع فكرى وجدال لا ينتهى ، واستمر الحال حتى توفى " أبو المعالى الجوينى " ، معلمه الروحى ، وعندئذ انحاز تفكير الغزالى إلى الدنيا ومتعها ورغبته فى نشدان هذه المتع ، فقصد إلى بغداد عاصمة الخلافة وهو فى أشد حالات إصراره على بلوغ المكانة العالية التى يرى نفسه مستحقاً لها .

جاء فى كتاب المقفى :

" فلما مات أبو المعالى خرج الغزالى قاصداً بغداد حيث نظام الملك وناظر الأئمة والكبار فى مجلسه وقهر الخصوم وظهر كلامه على الكل واعترف بفضله الخاص والعام وتلقاه نظام الملك بالقبول وأهله محل النفوس وأجلّه إجلال الرءوس ، ثم ولاّه التدريس بمدرسة النظامية ببغداد وأمره بالتوجه إليها ، فقدم بغداد سنة أربع وأربعمائة وهو فى الرابعة والعشرين من عمره .. ثم يقول :

" وقد درس بالنظامية فأعجب الكل بحسن كلامه وكمال فضله وعبارته الرشيقة ومعانيه الدقيقة وإشاراته اللطيفة ونكته الظريفة " .

وفى بغداد أصبح الغزالى صديق الأمير وعالمه ، وبذلك تمتع بما اشتهى من جاه ومال وسلطة وأهله نظام الملك مكانا عاليا وإتسعت حلقات دروسه واشتهر بفتواه الشرعية البارعة وبدأ يؤلف كتبه التى أصبحت معالم فى تاريخ الفكر الإسلامى ..

لكن هل استراح الغزالى ؟ .. لم يحدث .. فقد اشتاقت نفسه إلى معارك الفكر .. لكن هذه المرة دارت رحى المعركة داخل نفسه المفعمة بالشك والحيرة . . لقد كان لهيب الشك يحرقه فى صمت وكان تعطش روحه العميق

إلى الإيمان يفسد عليه متع الحياة .. وانتهى به ذلك كله إلى المرض والعزلة والانقطاع إلى عبادة الله .

فى كتابه " المنقذ من الضلال " ، يفسر الغزالى بنفسه ما ألم به من مرض وحيرة وانقطاع عن الناس .. يقول :

" فلم أزل أتجاذب بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعى الآخرة قريباً من سنة وأخيراً جاء دور العمل ، وجاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار ، وقد أقفل الله لسانى حتى اعتقل عن التدريس فكنت أجاهد نفسى أن أدرس يوماً واحداً تطييبا لقلوب المختلفين الىّ ، فكان لا ينطلق لسانى بكلمة ولا أستطتعها البته ، ثم أورثت هذه العقلة فى اللسان حزناً فى القلب بطلت معه قوة الهضم حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج وقالوا : هذا أمر نزل بالقلب ومنه سرى إلى المزاج فلا سبيل إليه بالعلاج إلا بأن يتروح السرّ عن الهم الملم " ..

ثم لاحظت أعمالى فإذا أنا منغمس فى العلائق وقد أحدقت بى من جميع الجوانب ولاحظت أعمالى وأحسنها التدريس والتعليم فإنما أنا معتقل على علوم غير مهمة ولا نافعة فى طريق الآخرة .. ويستطرد الغزالى فيقول :

ثم تفكرت فى نيتى فى التدريس ، فإذا هى غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت فتيقنت أنى على شفا جرف هاوٍ ، وأنى قد أشرفت على النار إن لم اشتغل بتلافى الأحوال ، فلم أزل أتفكر فيه مدّة وأنا بعد على مقام الاختيار أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوماً ، وأحل العزم يوماً ، وأقدم فيه رجلا وأؤخر أخرى ، لاتصدق لى رغبة فى طلب الآخرة بكرة إلاّ ويحمل عليها جند الشهوة حمله فتفترها عشيّة .. فصارت شهوات الدنيا تجاوبنى بسلاسلها

إلى المقام .. ومنادى الإيمان ينادى .. الرحيل ، الرحيل ، فلم يبق من العمر إلاّ القليل وبين يديك السفر الطويل وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل فإن لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد ؟ .. وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع ؟ .. فعند ذلك تنبعث الداعية وينجزم العزم على الهرب والفرار ..

ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حالة عارضة إيّاك أن تطاوعها فإنها سريعة الزوال ، فإذا أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض والشأن المنظوم الخالى عن التكدير والتنغيص والأمن والسلم الصافى عن منازعة الخصوم فربما التفت إليه ولا يتيسر لك المعاودة .

فلم أزل أتردد - كما يقول الغزالى - بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعى الآخرة قريباً من ستة أشهر أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، وفى هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار .. ثم يقول :

"ولما أحسست بعجزى وسقط بالكلية اختيارى ، التجأت إلى الله التجاء المضطر الذى لا حيلة له ، فأجابنى الذى يجيب المضطر إذا دعاه وسهّل على الإعراض عن الجاه والمال والأولاد والصحاب ، وأظهرت عزم الخروج إلى مكة ، وأنا أدير فى نفسى سفر الشام ، حذرا من أن يطّلع الخليفة وجملة الصحاب على عزمى ، فتلطفت فى الخروج من بغداد على عزم ألا أعاودها أبداً " ..

إذن فقد كانت معاناة الغزالى من جراء ما كان يعتمل فى نفسه من شك وإحساس عميق بالحيرة ، فهل يترك ما أصبح يتمتع به من جاه ومال وسلطة ، أم يبذل روحه ابتغاء مرضاة الله .

نضف إلى ذلك ما كان يميز طبيعة الغزالى من نزعة إلى الشك وهذا ما

نلمحه واضحاً من كتبه خاصة كتابه " تهافت الفلاسفة " ، فهو يهاجم الفلاسفة محتجاً بآراء المعتزلة والأشعرية ، ويهاجم المعتزلة محتجاً بأهل السنة ويهاجم رجال الفقه والسنة محتجاً بالتصوف .. فالغزالى عريق فى الشك وهذا ما ضاعف من ألمه ومعاناته وهى التى انتهت به إلى المرض والعزلة الإجبارية وكان مسعاه من ذاك أن يصل إلى الإيمان الحقيقى .

ترك الغزالى بغداد وترك فيها كل ما علق به من حب الدنيا وكل ما استبد به من شكوك ، ترك هذا كله إلى دنيا من الإيمان والتأملات .. لم يحفل بمنصب أو ترف ، ترك هذا إلى تقشف وزهد ورياضة روحية .. لقد كان هذا بمثابة انقلاب ليس فى حياة الغزالى فحسب بل فى تاريخ الفكر الإسلامى ..

بعد أن قضى الغزالى أياماً فى مجاهدة النفس بالبيت الحرام رحل إلى دمشق .. يقول المقريزى فى كتابه المقفى :

" إنه جعل وهو فى دمشق يعكف فى زاوية فى منارة الجامع الأموى ويلبس الثياب الخشنة ، ويتقلل فى مطعمه ومشربه واعتزل الناس وأخذ فى تصنيف كتابه إحياء العلوم وذهب يطوف المشاهد ويزور الترب والمساجد ويروض نفسه على المجاهدات ويكلفها مشاق العبادات إلى أن لان له صعبها وسهل له بعد ضيق رحبها " .

بعد ذلك صفت روحه واستطاع أن ينهل من النور الأعلى فألّف أخلد كتبه ومنها الإحياء ، ومضى الغزالى فى رحلة طاف خلالها القدس واعتكف فى المسجد الأقصى ثم رحل إلى الإسكندرية وعاد إلى وطنه خراسان حيث عاود التدريس فى المدرسة النظامية "بنيسابور" ، ثم رجع إلى " طوس " ، واتخذ إلى جانب داره مدرسة للفقهاء وخانقاه للصوفية حتى كانت وفاته " بطوس " ، يوم الإثنين رابع عشر من جمادى الأخرى سنة خمس

وخمسمائة الموافق ثمانية عشر من ديسمبر سنة ألف ومائة وإحدى عشر ميلادية ، وعن وفاته يقول ابن الجوزى فى كتابه " الثبات " نقلا عن أحمد أخى الغزالى .. يقول :

" لما كان يوم الإثنين وقت الصبح توضأ أخى أبو حامد وصلى وقال : علىّ بالكفن فأخذه وقبله ووضعه على عينيه وقال .. سمعاً وطاعة للدخول على الملك ثم مدّ رجليه واستقبل القبلة ومات قبل الإسفار " ..

## أفكاره .. وتعاليمه .

لقد سيطر على تفكير الغزالى فكرتان أساسيتان كانتا دافع ومحصلة منهجه الفكرى هاتان الفكرتان هما .. الشك والإيمان . . فالشك - كما كان يرى الغزالى - هو الطريق المفضى إلى الإيمان الحق .. يقول الغزالى فى آخر كتاب له " ميزان العمل " :

" ولو لم يكن فى مجارى هذه الكلمات إلا ما يشكك فى إعتقادك الموروث لتنتدب للطلب فناهيك به نفعا ، إذ الشكوك هى الموصلة إلى الحق ، فمن لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقى فى العمى والضلال " ..

لقد كانت لشكوك الغزالى فائدة كبيرة ، فقد علمته أن يناقش قبل أن يؤمن ، كما أفاده الشك فى تفنيد كثير من الأفكار والخرافات التى امتلأت بها كتب عصره ، كما علمه الشك ألاّ يكون خائفاً أو هياباً أمام المذاهب والأفكار التى تستند إلى أسماء كبيرة لها وزنها فى سجل التاريخ .

وليس غريباً أن هذه الشكوك هى التى جعلته فى حالة صراع دائم ومستمر مع كثير من المذاهب والثقافات الموجودة على الساحة الدينية

والفكرية والسياسية .. وهذا كله كشف له الغث من الثمن وساعده على بلورة أفكاره ومذهبه حتى بلغ درجة من الإيمان جعلته يسيطر بالحجة على عصره والعصور التى تلت عصره ..

وكان الغزالي قد تقلب فى العلوم جميعها لعله يظفر منها بما يشفى غليله إلى المعرفة وإدراك الحقيقة .. فمن الفقه إلى علم الكلام إلى الصوفية والفلسفة .. وهو فى كل ذلك يجد زيفا ووهما إلى أن وفقه الله إلى رجل شديد الإيمان شديد الورع وهو الإمام الصوفى " يوسف النسّاج" .. يقول الغزالى :

" كنت فى مبدأ أمرى منكراً لأحوال الصالحين ومقامات العارفين ، حتى صحبت شيخى يوسف النسّاج ، فلم يزل يصقلنى بالمجاهدة حتى حظيت بالواردات فرأيت الله تعالى فى المنام فقال لى :" ياأبا حامد ، فقلت : أو الشيطان يكلمنى ؟ قال .. لا ، بلى أنا الله المحيط بجهاتك الست .. ثم قال ياأبا حامد زر مسافرك واصحب أقواماً جعلتهم فى أرضى محل نظرى ، وهم الذين باعوا الدارين بحبى .. قلت بعزتك إلا أذقتنى برد حسن الظن بهم ؟.. قال .. قد فعلت ، والقاطع بينك وبينهم تشاغلك بحب الدنيا ، فأخرج منها مختاراً قبل أن تخرج منها صاغراً ، فقد أفضت عليك أنواراً من جوار قدسى ، فاستيقظت فرحاً مسروراً ، وجئت إلى شيخى يوسف النسّاج ، فقصصت عليه المنام ، فتبسم وقال :" يا أبا حامد هذه ألوا عنا فى البداية بل إن صحبتى ستكحل بصيرتك بأحمد التأييد حتى العرش ومن حوله ، ثم لا ترضى بذلك حتى تشاهد مالا تدركه الأبصار فتصفو من الأكدار طبيعتك وترقى على طور عقلك وتسمع الخطاب من الله تعالى كموسى : ( إنى أنا الله ربّ العالمين ) " .

وبعد أن قضى فترة طويلة من المجاهدة النفسية والاعتكاف والعزلة متعبدا لله متأملا فى آياته حتى جعل الحب الإلهى غايته فظفر بالسعادة .. يقول الغزالى :

" سعادة كل شئ لذته وراحته ، ولذة كل شئ تكون بمقتضى طبعه وطبع كل شئ ما خلق له ، فلذة العين فى الصور الحسنة ، ولذّة الأذن فى الأصوات الطيبة وكذلك سائر الجوارح بهذه الصفة ، ولذة القلب الخاصة بمعرفة الله سبحانه وتعالى لأنه مخلوق لها ، وكل مالا يعرفه ابن آدم إذا عرفه فرح به مثل الشطرنج إذا عرفها فرح بها ، ولو ينهى عنها لم يتركها ولم يطق عنها صبراً وكذلك إذا وقع فى معرفة الله سبحانه وتعالى فرح بها ولم يصبر عن المشاهدة ، لأن لذة القلب المعرفة ، وكلّما كانت المعرفة أكبر كانت اللذة أكبر .. ولذلك فإن الإنسان إذا عرف الوزير فرح ولو عرف المليك لكان أعظم فرحاً .. وليس موجود أشرف من الله سبحانه وتعالى لأن شرف كل موجود به ومنه ، وكل عجائب العالم أثر من آثار صنعته فلا معرفة أعز من معرفته ولا لذة أعظم من لذة معرفته وليس منظر أحسن من منظر حضرته .. وكل لذات شهوات الدنيا متعلقة بالنفس وهى تبطل بالموت ، ولذة معرفة الله متعلقة بالقلب فلا تبطل بالموت لأن القلب لا يهلك بالموت بل تكون لذته أكثر وضوءه أكبر ، لأنه خرج من الظلمه إلى النور " ..

والغزالى من أهل الباطن ، وهؤلاء لا يعتمدون على الحواس 'المعروفة للإدراك والوصول إلى الحقائق .. وأهل الباطن هم المتصوفة ، ويحق للكثيرين أن يعتبروا الغزالى هو الكاتب أو الرائد الأول للصوفية ، فهو يؤمن بأن معارف الباطن هى طريق الهداية فهى صلة مستمرة بين العبد والخالق ويقول الغزالى عن علم الباطن :

" إنه عباره عن نور يظهر فى القلب عند تطهيره وتزكيته من صفاته المذمومة ، وينكشف من ذلك النور أمور كثيرة كان يسمع من قبل أسماءها فيتوهم لها معانى مجملة غير متضحه فتتضح إذ ذاك حتى تحصل المعرفة الحقيقية بإدراك حقائق علم الدنيا وعلم الآخرة ، وهذا ممكن فى جوهر الإنسان لولا أن مرآه القلب قد تراكم صدؤها وخبثها بقاذورات الدنيا ولا سبيل لهذا العلم بالرياضة والتعليم وهذه هى العلوم التى لا تسطر فى الكتب أو لا يتحدث بها من أنعم الله عليه بشىء إلا مع أهله ، وهذا هو العلم الخفى الذى أراده ﷺ بقوله : إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا أهل المعرفة بالله فإذا أنطقوا به لم يجهله أهل الاغترار على الله .

واعلم – كما يقول الغزالى – أن انقسام هذه العلوم إلى خفية وجلية لا ينكرها نو بصيرة وإنما ينكرها القاصرون ، وقد قال ﷺ – إن للقرآن ظاهراً وباطناً واحداً ومطلقاً – وقال علىّ وأشار إلى صدره .. إن هاهنا علوما جمة لو وجدت لها حَمَلَه ، وقال أيضاً .. لو أردت أن أفسر الفاتحة بما أعلم لاحتجت إلى ثمانين بعيراً .. وقال الرسول :

"ما فضلكم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة ولكن بسرّ وقر فى صدره .. وقال سهل التسترى : للعالم ثلاثة علوم ، علم ظاهر يبذله ، وعلم باطن لا يسعه إظهاره إلا لأهله وعلم هو بينه وبين الله لا يظهره لأحد " ..

ويعبر الغزالى عن المعرفة بأنها نور يقذف فى القلب ، وهـ ا ما كان يعنيه بالصوفية فهى التى تعلى الروح وترفع الإنسان من الظلمة إلى النور ويصف الغزالى الصوفية فى كتابه " المنقذ من الضلال " فيقول :

" إنى علمت يقينا أن الصوفيه هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السير وطريقتهم أصوب الطرق وأخلاقهم أذكى الأخلاق

بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئا من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلاً ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به ".

والتصوف عند الغزالى – كما يقول الأستاذ طه عبد الباقى – ينقسم إلى قسمين .. قسم يتعلق بالتربية وتهذيب الروح ونبل الخلق والتحلى بالفضائل والمحاسن الأدبية وهو ما اصطلح على تسميته بعلم المعاملة ، وقسم يتعلق بالرياضة الروحية والعبادة وما فيها من نور وطهر وكشف وفيض .

والقسم الأول هو عماد فلسفة الغزالى الأخلاقية ، بل هو عماد كتابه الأكبر " الإحياء " ، الذى خلد فى تاريخ الفكر الإسلامى وخلد به الغزالى " كحجة للإسلام " ، بتوضيح فضائله وأنواره .

وهو مادة دسمة لرواد الأخلاق ، ومادة دسمة لمن يبغى إنسانية نبيلة مهذبة لا تعرف التخاصم والتنابز بالألقاب ولا تعرف الفسوق والجدال وسوء الخلق وفيه تتجلى وتبرز معانى الحديث الشريف " وإنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " .

أما القسم الثانى وهو قسم العبادة والفيض فأول شروطه كما يقرر الغزالى معرفة الكتاب والسنة معرفة عليا ، خلافاً لمن قال : إن الفيض يأتى بالطهارة فقط ولو لم تكن هناك معرفة بالكتاب والسنة والفقه ، ويسمى هذا القسم فى اصطلاحاتهم " بالطريق " وقد قسموه إلى أربع مراحل :

**المرحلة الأولى:** " مرحلة العمل الظاهر ، أى مرحلة العبادة والإعراض عن الدنيا وزخرفها وزينتها والزهد فى شهواتها والانفراد والعكوف على

الذكر واستغفار ..

**والمرحلة الثانية:** مرحلة العمل الباطنى ، بتزكية الأخلاق وتطهير القلب وتصفية الروح ومحاسبة النفس ومراقبتها والتجمل بالأخلاق النبيلة والصفات الذكية ..

**والمرحلة الثالثة:** مرحلة الرياضة والمجاهدة التى يقول فيها الرسول " رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ".. وبتلك المجاهدة يقوى سلطان الروح وتتحرر النفس من الألوان الأ رضية فتسمو وتصفو حتى تنطبع فيها حقائق العالم وأسراره وينسكب فى القلب نور ينكشف به جمال العالم وجلاله ودقائقه وأسراره فيرق الحس ويتنبه الشعور ويستيقظ الإحساس ، فتكون حركة حياة فى المشاعر عامة وتشعر تلك المشاعر بلذة عليا وعلوم نورانية تقوى فى النفس حتى تصير صفة لازمة ، ويتوالى الكشف للنفس وتزاح عنها الحجب شيئاً فشيئاً حتى تصل إلى الأنوار العليا فى عرفهم .

**والمرحلة الرابعة:** فهى مرحلة الفناء الكامل بوصول النفس إلى مرتبة شهود الحق بالحق وانكشاف ووضوح العوالم الخفية والأسرار الربانية وتوالى الأنوار واللذة الروحانية .

ويتحول الغزالى إلى الفلسفة فيفند مزاعم الفلاسفة ويهدم ما يرونه من أفكار ، ثم يطرح القضايا الفلسفية على العامة بعد أن كانت محاطة بالألغاز والطلاسم .. يقول فى كتابه " تهافت الفلاسفة " :

" إن الفلاسفة من عهد أرسطو إلى عهدنا هذا قد بنوا مذاهبهم فى الإلهيات على ظن وتخمين من غير تحقيق ويقين ويستدلون على صدق علومهم الإلهيه بظهور العلوم الحسابية والمنطقية ويستدرجون بهذا ضعفاء

العقول ولو كانت علومهم الإلهية متقنة البراهين نقية عن التخمين كعلومهم الحسابية لما اختلفوا فيها كما لم يختلفوا فى الحسابية والمنطقية ".

والغزالى لا يعتمد فى معرفة الحق على مذهب أو فرقة بل هو يبتدع نظرية فكرية جديدة فى التفكير الإسلامى هى الآن من سمات العلماء المجددين .. ويقول الغزالى عن طريقه لمعرفة الحق .. يقول :

" اطرح المذاهب ، فليس مع واحد منهم معجزة يترجح بها جانبه ، فاطلب الحق بطريقه النظر لتكون صاحب مذهب ، ولا تكن فى صورة أعمى مقلد ، وإنما خذ الحق أينما وجدته وفى أى ناحية كان ، واطلب الحق بالنظر لا بالتقليد فالحكمة ضالة المؤمن يلتقطها أينما وجدها .

والفضائل عند الغزالى تنحصر فى أمرين : أولهما جودة الذهن وتميزه والثانى : حسن الخلق فالذهن الجيد يميز طريق السعادة والشقاء ، أما حسن الخلق فإنه يمنع المرء من إتيان العادات السيئة ويجعله يشتاق إلى العادات الحسنة .. والفضيلة هى الطريق الوحيد للسعادة .

وينتقل الغزالى بعد ذلك إلى تفصيل القوى النفسية التى يجب تهذيبها فيحصرها فى ثلاث قوى رئيسية هى .. قوة التفكير ، وقوة الشهوة ، وقوة الغضب .. فإذا هذبت قوة التفكير كما ينبغى حصل المرء على الحكمة وثمرتها أن يتيسر له التفريق بين الحق والباطل .. أما إصلاح الشهوة فيؤتى بالعفة التى تزجر النفس عن ارتكاب الفواحش .. أما إصلاح الغضب فيحصل به الحلم وكظم الغيظ وكف النفس عن التشفى والاندفاع المجنون .

أما فضائل الحياة النفسية كما يراها الغزالى فهى أربع فضائل هى .. الحكمة والشجاعة والعفة والعدالة .. ويستمد الغزالى أدلته لهذه الفضائل من السّنة والأمثال .. أما الفضائل البدنية فهى أيضاً أربع عند الغزالى وهى

الصحة .. والقوة .. والجمال .. وطول العمر .. ويضيف الغزالى إلى هذه الفضائل فضائل أخرى وهى أربع المال ، والأهل ، والعز ، وكرم العشيرة .. ثم يقول الغزالى : إن هذه الفضائل كلها لا يمكن الانتفاع بها إلا بنوع خامس من الفضائل هى : هداية الله ورشده وتسديده وتأييده .

هذه الفضائل بأنواعها المختلفة تشكل فيما بينها الدستور الخلقى للغزالى .. وهو دستور يفنده ويشرحه الغزالى فى كل كتبه وأصبح بالتالى هادياً ودليلاً لكل من أراد أن يتحلى بمكارم الأخلاق وأن يكون بحق مسلماً مثالياً .

أما علاقة الرجل بالمرأة فيتناولها الغزالى فى مواقف عدّة فى كتبه وهو يرى سيادة البيت للرجل وبدون تلك السيادة لا تستقيم الحياة ولا تتحقق السعادة .. وهو يقول : " ليس حسن الخلق مع المرأة كف الأذى عنها ، بل احتمال الأذى منها والحلم عند طيشها وغضبها " ..

كما ينادى الغزالى بتعليم المرأة مع ضرورة أن يقتصر هذا التعليم على الأمور الدينية وهو يلزم الرجل تعليم زوجته الصلاة ومبادئ الدين .. وهو يطالب الرجل بأن يكون رفيقاً مع المرأة .. فهو يقول :

" إن من أحب أن يكون مشفقاً على زوجته رحيماً بها فليذكر ، أن المرأة لاتقدر أن تطلقه وهو قادر على طلاقها ، وأنها مادامت فى عصمته لاتقدر على زوج سواه وهو قادر على ذلك وأنها تقنع منه بطلاقة وجهه وبالكلام اللين وهو لا يرضى بجميع أفعالها وأنها تفارق أمها وأباها وجميع أقاربها لأجله وهو لا يفارق لأجلها أحداً " .

لاشك إذن أن الغزالى فى كثير مما قال سبق عصره بل إنه فى كلمة له يسابق الزمن بما تلاه من اكتشافات علمية كبيرة .. فهو يقول : "ظهر لنا

بالبصيرة الواضحة التى لا يتمارى فيها أن فى الإمكان والقوة أصنافاً من العلوم العجيبة لم تخرج بعد من الوجود وإن كان فى قوة الآدمى الوصول إليها وعلوم كانت قد خرجت إلى الوجود واندرست الآن ، فلن يوجد فى هذه العصور على وجه الأرض من يعرفها وعلوم أخرى ليس فى قوة البشر أصلاً إدراكها والإحاطه بها ويحظى بها بعض الملائكة المقربين " ..

ورغم أن كثيراً من التهم وسهام النقد وجهت للغزالى ولأفكاره ولمذهبه خاصة ما قاله ابن القيم وابن رشد إلا أن كثيراً من المستشرقين وعلماء الإسلام أعطوه ما يستحق من مكانة فى تاريخ الفكر الإسلامى وسوف نكتفى بآراء اثنين من العلماء دليلاً على ذلك .

يقول المستشرق الدكتور " زويمر " ، كل باحث فى تاريخ الرسلام يكتفى بأربعة من أولئك الفطاحل العظام وهم .. محمد النبى والبخارى والأشعرى والغزالى " ..

أما الإمام الأكبر الأستاذ المراغى .. فهو يقول عن الغزالى :

" إذا ذكر ابن سينا أو الفارابى خطر بالبال فيلسوفان عظيمان ، وإذا ذكر ابن العربى خطر بالبال رجل صوفى له فى التصوف آراء لها خطورتها وإذا ذكر البخارى ومسلم وأحمد ، خطر بالبال رجال لهم أقدارهم فى الحفظ والصدق والأمانة والدقة ومعرفة الرجال ، أما إذا ذكر الغزالى فقد تشعبت النواحى ولم يخطر بالبال رجل واحد بل خطر بالبال رجال متعددون لكل واحد قدرته وقيمته ..

يخطر بالبال الغزالى الأصولى الماهر والغزالى الفقيه الحر والغزالى المتكلم أمام أهل السنة وحامى حماها والغزالى الاجتماعى الخبير بأحوال العالم وخفيات الضمائر ومكنونات القلوب والغزالى الفيلسوف أو الذى

ناهض الفلسفة وكشف عما فيها من زخرف وزيف ، والغزالى المربى والغزالى الصوفى الزاهد ، وإن شئت فقل إنه يخطر بالبال رجل هو دائرة معارف عصره " .

* * *

# الـــــرازى



## العبقرى الذى أضاع حجر الفلاسفة بصره

لم يكن أبو بكر الرازى عالماً أو حكيما فحسب بل كان موسوعة كاملة فى العلم والأدب والفن .. كان طبيباً فيلسوفاً موسيقاراً أديباً .. وهو بين هذه العلوم والفنون بارع متفوق حتى إنك لاتكاد تدل عليه بعلم واحد .. هذا العالم العربى الفذ والذى كان معلماً لأوربا لقرون طويلة كانت حياته مزيجاً من البؤس والشقاء بل إنه فقد بصره بسبب علمه وأخيراً مات كسير القلب فقير الخاطر .. هو إذن من قال فيه الشاعر :

تموت الأسد فى الغابات جوعاً ولحم الضأن يُطرح للكلاب
وخنزير ينام علــــــى فراش وذو أدب ينام علــى التراب

جاء فى ذكر الحديث عن الرازى فى كتاب " عيون الأنباء ".. أنه –أى الرازى – كان كريماً متفضلاً باراً بالناس حسن الرأفة بالفقراء المرضى حتى كان يجرى عليهم الجرايات الواسعة ويمرضهم .

أما " البيرونى " ، فهو يقول عن الرازى :

" كان دائم الدروس شديداً لأتباعه يضع سراجه فى مشكاة على حائط

يواجهه مسندا كتابه إليه .. فإذا غلبه النعاس سقط الكتاب من يده فأيقظه ليعود إلى ماهو عليه " .

نشأ الرازى فى مدينة " الرى " ، بالقرب من طهران الحالية ، وكان منذ نعومة أظفاره شغوفاً بالمعرفة محباً للعلم وقد ظهرت عبقريته مبكراً عندما كان يجرى تجاربه العلميه ويدون ما يلاحظه فإذا هو سطور جديدة فى تاريخ العلم الطويل .. لقد ظهرت لديه القدرة على الاكتشاف وكان لا يزال شاباً صغيراً "..

وعن ذلك يقول العالم الإنجليزى " ستابلتون " : " يجب أن تعتبر الرازى واحداً من أعظم الباحثين وراء المعرفة الذين عرفهم التاريخ وليس هو فقط وحيد عصره وفريد زمانه .. لكنه بقى بلا ند له حتى بزوغ فجر العلم الحديث فى أوربا عند ظهور جاليليو وروبرت بيل " .

## الرازى ... بين العبقرية والحكمة .

كان الرازى فى الثلاثين من عمره عندما تعلم علوم الطب وبرع فيها على يد أحد مشاهير الأطباء فى عصره وهو " الطبرى " ، وكان الطبرى فارسياً اعتنق الإسلام وهو الذى درس الطب من كتب أطباء الإغريق واليونان .

المهم أن الرازى انتهى من تحصيل علوم الطب ثم أخذ يراجع نظريات من سبقوه من قدامى الأطباء ، ثم يكتشف فى كثير م هذه النظريات أخطاء وخزعبلات ، ويضطر الرازى إلى إعادة البحث والتجريب ليكشف الصدق من الكذب والغث من الثمين وهو أول من اكتشف المذهب العلمى التجريبى .

ويقف المرء على كثير من آراء الرازى التى تقطر حكمة عن العلاج والطب

فهو يقول :

" وحيث إن المواد الغذائية تشفى وتنفع فعليك بها دون العقاقير وحيث إن المواد البسيطة تكفى فعليك بها دون المركبة " .

وهو القائل :

" إن من اهتم بمعالجة اللؤلؤ وجب عليه دائماً أن يحافظ على جماله كذلك فإن الذى يتعاطى مداواة الجسم البشرى – أجمل ما خلق الله فى الدنيا – عليه أيضاً أن يحرص كل الحرص .. وأن يكون الحب هو رائده فى عمله " .

ثم يقول ينصح تلاميذه من الأطباء فيقول :

" ينبغى أن تكون حالة الطبيب معتدلا لا مقبلاً على الدنيا كلية ولا معرضاً عن الآخرة كلية .. فيكون بين الرغبة والرهبة " ..

" إن استطاع الطبيب أن يعالج بالأغذية دون الأدوية فقد وافق السعادة "

وللرازى قول فيمن يدعى الطب عن جهل أو تقليد يقول فيه :

" الأطباء الأميون والمقلدون والأحداث الذين لا تجربة لهم .. ومن قلّت عنايته وكثرت شهوته .. قتلة " ..

هذا هو الرازى الطبيب صاحب كتاب الحصبة والجدرى .. وأول ماكُتب عنهما فى تاريخ الطب وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية عام ١٥٦٥م .. وعن هذا الكتاب يقول : "بيوبرجر " ، أحد مؤرخى الطب " هذا الكتاب ولاريب أنفس الكتب الطبية وله فى تاريخ علم الأوبئة أعظم منزلة من جهة أنه أقدم بحث عن الجدرى " ..

والرازى أول من اكتشف خيوط الجراحة من أمعاء الحيوانات ، كما أنه مؤسس نظرية علاج الأمراض المزمنة ، كما أنه أدلى بدلوه فى علاج

الأطفال وأمراض العيون وعلاجها ، ويعتبر الرازى أول من اكتشف تأثير الضوء على حدقة العين واتساعها ليلاً وانكماشها نهاراً .

ومن الغريب أن الرازى أول من اكتشف تأثير الموسيقى على علاج الأمراض وتأثيرها فى الإسراع بشفاء المريض .. وكان للرازى صوت رخيم وعزف مبدع على العود ، وهو لم يلبث أن وظّف هذه الموهبة فى العلاج واستخدامها كسبيل للشفاء .

وربما كان من الأنسب أن نعرف أسلوب الرازى فى علاج مرضاه وكيف كان يستخدم الأسلوب العلمى التجريبى فى تدوين ملاحظاته وتجاربه على المرضى والمرض .. إن هنا يصف مريضاً بداء الثعلبة وهو مرض يؤدى إلى سقوط شعر الرأس فى حلقات دائرية .. يصف الرازى المرض وعلاجه فيقول :

" جاءنى رجل من أهل " دارى " وبه داء الثعلبة فى رأسه قدر أصبعين فأشرت عليه أن يدلّك مكان الإصابة بخرقة حتى يكاد يُدمى ثم يدلكه ببصل ففعل ذلك وأسرف فى ذلك مرات كثيرة فأصابه ألم فأمرت أن يطلى عليه شحم الدجاج فسكن اللدغ ثم تجاوز فنبت شعره فى نحو شهر أحسن وأشد سواداً وتكاثفاً من الأصل " .

والحقيقة أن هذه التجربة وغيرها سجله الرازى فى كتابه الأشهر " الحاوى " ، والذى جاء فى ثلاثين جزءًا .. وكتاب " الحاوى " كان مرجعاً لجامعات أوربا لقرون عديدة وقد ترجمه إلى الإنجليزية الدكتور " مايرهوف "

هذا عن الرازى الطبيب ، أما الرازى الكيميائى فقد كان لا يقل عن الطبيب اهتماما ومعرفة .. وقد نسب إلى الرازى أنه استطاع أن يجعل من علم الكيمياء علماً قائماً على التجربة والبرهان وأن يخلصه من شوائب

لقد جاء اهتمام الرازى بعلم الكيمياء بناءاً على الفكرة التى كانت سائدة فى عصره عن حجر الفلاسفة ، وهذا الحجر كان يعتقد علماء ذلك الزمان أنه قادر على تحويل التراب إلى ذهب .. كانت هذه الفكرة الخيالية هى السبيل الذى قام عليه علم الكيمياء .. والرازى كان أحد هؤلاء ، لكن عبقريته الفذة جعلته يسلك دروباً علمية جعلت من الكيمياء علماً له تجارب واكتشافات .

فالرازى هو أول من استطاع تحضير " الكحول " ، من خلال تقطير المواد النشوية والمواد السكرية ، ثم أدخل الكحول فى العديد من مستحضراته الصيدلية ، كما أن الرازى هو أول من وضع تقسيماً علمياً للمواد الكيمائية .

## الرازى .. والمأساة فى حياته .

بلغ الرازى شهرة كبيرة فى علاج المرضى ، فضلاً عن أبحاثه فى الكيمياء ، وكان من جراء ذلك أنه اختير لرئاسة مستشفى بغداد ، كما تولى مهمة تعليم الطب فى مستشفى " الرى ، قرب طهران ..

هذه الشهرة والنبوغ كانا سبباً فى المأساة التى عصفت به وبحياته ، فقد سمع عن الرازى أمير خرسان " المنصور بن اسحاق " ، كان الناس يظنون أنه – أى الرازى – ساحر وأنه يأتى بالمعجزات ، وكان الأمير المنصور واحداً من هؤلاء .

اعتقد الأمير أن الرازى يستطيع أن يحقق الحلم ، ذلك الحلم الذى ساد كل أوساط العلماء فى هذا العصر ، كان الحلم يدور حول تحويل التراب إلى

ذهب .. وكيف يتم تحقيق ذلك إلا بواسطة حجر الفلاسفة !!.

كان الرازى فقيراً معدما وكان طموحه العلمى يتطلب توافر إمكانيات لم تكن بمقدوره ، إذن عليه أن يتصل بالأمير وأن يستغل طمعه فى الحصول على حجر الفلاسفة أو تحويل التراب إلى ذهب ليصل إلى ما يريد .

وهكذا توفر مال الأمير الجاهل السفاح أمام الرازى ، وتوفر له أيضاً سنوات يجرى فيها تجاربه ليصل إلى نتائج علمية غيرت وجه العلم وطرق البحث .

لم يكن يهم الأمير أن يتوصل الرازى إلى نتائج علمية تضعه على قمة صناع التاريخ ، كان كل ما يهمه إشباع نهمه للذهب .

انتهى الرازى أخيراً من أبحاثه وسجل نتائجه العلمية الخطيرة فى كتاب بالغ الأهمية ، كان كتاباً ضخماً ظن أن أميره سيسعد به ومن ثم يتقرب منه أكثر .. لكن ماحدث كان مأساة كاملة الفصول .

يقول الرازى مخاطباً الأمير .. جئت يا مولاى بالكتاب .

أنتفخت أوداج الأمير فرحاً وسعادة ، فها هو أخيراً قد ظفر بما أراد .. نظر الأمير إلى الرازى وضربات قلبه تزداد سرعة ثم سأله :

– أين حجر الفلاسفة ؟ أهو داخل هذا الكتاب ؟.

فيجيب الرازى متحمساً :

– لا يا سيدى الأمير .. داخل الكتاب علوم بشرية تفيد الناس وتخفف عنهم أمراضهم .

فيشتاط الأمير غضباً وهو يعض على أسنانه .. يعاود النظر إلى الرازى وهو يتساءل .. إذن فلا يوجد لديك حجر الفلاسفة ؟.

ويصمت الرازى ، وعندئذ يأمر الأمير حاجبه أن يضرب الرازى على رأسه بالكتاب حتى تتمزق جلدته وأوراقه ، ويفعل الحاجب ما أمره به الأمير وكان من نتيجة ذلك أن فقد الرازى بصره وأصيب بالعمى .

هكذا تنتهى حياته العلمية بمأساة فلم يعد يعانى من الفقر فقط بل ومن العمى أيضا .. ويموت الرازى وهو فى السبعين من عمره .. كفيفاً فقيراً لايجد قوت يومه وهو الذى صاغ العلم والحكمة لتكون نبراساً منيراً للعالم ولأجيال كثيرة جاءت بعده ..

* * *

# وليم جيمس



## رائد علم النفس التجريبى .

ثمة علاقة مؤكدة بين الفلسفة وعلم النفس والعلوم التجريبية ، هذه العلاقة ارتبطت بشدة بالمفكر والفيلسوف الأمريكى وليم چيمس .

والحقيقة أننا لانستطيع أن نتحدث عن فلسفة أمريكية خالصة مثل "وليم چيمس " ، ويمكننا أيضاً أن نقول أن وليم چيمس هو من وضع أسس " الفسلفة البرجماتية " ، أو تلك الفلسفة التى ترتبط بالواقع والتجربة ولا تحلق فى عالم خيالى أو سفسطة ليس لها أى معنى .. ومن يقرأ لوليم چيمس يلاحظ ببساطة كيف أنه استطاع أن يخضع الأفكار الفلسفية لدراساته النفسية .. أما علم النفس عنده فقد استمد روافده من دراساته لجسم الإنسان وفسيلوچية الأعضاء .. وكان كتابه الشهير والكبير " أصول علم النفس " من أهم كتب علم النفس التى تشرّح النفس البشرية بأسلوب علمى تجريبى لم يكن متاحاً من قبل .

ولد وليم چيمس عام ١٨٤٢ فى مدينة نيويورك لأبوين أمريكيين كان هو أكبر أبنائهما الخمسة ، وكان يليه أخوه " هنرى چيمس " ، وهو من أشهر

أدباء أمريكا ومن أشهر كتاب الرواية والقصة الأمريكية فى القرن العشرين

وينتمى وليم چيمس إلى أسرة عصامية اتجه بعض أفرادها إلى الزراعة بينما اتجه البعض إلى التجارة ، وقد استطاعت الأسرة تكوين ثروات كبيرة من خلال عملها فى الزراعة والتجارة .

إذن فإن وليم جيمس ينتمى إلى أسرة ثرية ، وهذا دون شك كان له الأثر فيما نشأ عليه من حب للعلم والتنقل بين دراسات مختلفة وعلوم شتى ..

وكان أبوه " هنرى چيمس " ، قد أصابه حادث كبير إذ تعرض لبتر ساقيه بسبب إصابته بحريق ، وكان لهذا الحادث أثره فى دفع الأب للاهتمام بالمشكلات الفلسفية والدينية .

إضافة إلى ذلك فإن " هنرى چيمس " ، الأب كان ذا حياة قلقة شديدة التوتر مما جعل من طابعه حب التنقل بين أمريكا وأوربا ، وجعل من انتظام دراسة الأبناء ومنهم وليم چيمس بالطبع محل اضطراب .

كان " هنرى چيمس " ، الأب رجلاً فيلسوفاً شغوفاً بالنزعة الدينية وقد درس اللاهوت فى جامعة " برنستون " ، وحدث أن أحد أصدقائه أهدى إليه كتاباً للفيلسوف السويدى " سويد نبرج " ، وكان الكتاب يزخر بالكثير من الأفكار الدينية والفلسفية العميقة مما جعل " هنرى چيمس " ، الأب يغوص فى أفكار روحانية خالصة أنسته علته البدنية وفاضت هذه الروحانية على أسرته كلها . *

هذه هى البيئة التى نشأ فيها " وليم چيمس" ، بيئة ثقافية تختلط فيها الأفكار الروحية بالفلسفة والعلم فى مزيج مدهش غريب ، ولعل هذه البيئة هى التى عوضته عن ذلك القلق والاضطراب الذى صادف تعليمه من جراء تنقل الأسرة الدائم بين نيويورك بأمريكا وبين بولونيا فى فرنسا وجنيف فى

سويسرا..

كانت هذه البيئة الثقافية الثرية تفرض على " وليم چيمس "، الدخول فى مناقشات وجدل مع أبيه ، وكانت هذه المناقشات تدور كلها حول قراءات الأب وأفكاره الفلسفية وبين مطالعات الابن ومايعنّ له من تساؤلات .

وعندما بلغ وليم چيمس الثامنة عشرة أحس فى نفسه شغفاً للفن خاصة رغبته فى التعبير عن أفكاره بالرسم ، لكنه لم يلبث أن سئم الفن والرسم ، بيد أن حبه العميق للفن انعكس على أفكاره وفلسفته بعد ذلك .

بعد ذلك انصرف وليم چيمس لدراسة العلوم الطبيعية فالتحق بمدرسة " لورانس " بجامعة " هارفارد "، واهتم اهتماما خاصاً بعلوم الكيمياء والتشريح ، وقد دفعه اهتمامه بهذه العلوم لدراسة الطب بالجامعة نفسها.

لكنه لم يلبث أن قطع دراسته للطب ليقوم برحلة استكشافية إلى منطقة الأمازون مع أستاذه " لويس اجاستير " ، وفى الأمازون أصابه المرض وساءت صحته فقطع رحلته وعاد إلى " هارفارد " لمواصلة دراسته للطب .

وفى عام ١٨٦٧ سافر إلى ألمانيا لحضور محاضرات العلامة "هلمهلتز" ، والدكتور " برنارد "، وغيرهما من العلماء لقد استهوته بشدة علوم الفلسفة وعلم النفس وبدأ يبلور نهج خاص به لم تكتمل ملامحه بعد ..

لكنه ولسوء حظه أصيب باكتئاب شديد أثّر عليه فسقط ضحية انهيار عصبى مما دفعه إلى محاولة الانتحار ، وحين عاد إلى أمريكا بعد غيبته ثمانية عشرة شهراً قضاها فى ألمانيا كان لا يزال مريضاً وهذا قوّض آماله فى الحصول على بكالوريوس الطب ولم يستطع بالتالى مزاولة المهنة ..

امتد المرض بوليم چيمس إلى أربع سنوات قضاها فى المطالعة والتأمل

وأخذت الأفكار تتداعى إلى ذهنه المتوقد حتى جادت قريحته بخواطر وأفكار شتى .

كانت فكرة الحرية من الأفكار التى استولت على عقله ووجد فى فلسفة " شارل رينوفييه " دعماً لهذه الفكرة ، كانت فلسفة " رينوفييه" دعماً لهذه الفكرة ، كانت فلسفة " رينوفييه " ، تقوم على رفض المذاهب المغلقة وإنكار كل ما هو متعال كالشئ فى ذاته والإشادة بالحرية والاعتزاز بالشخصية الإنسانية .

فى عام ١٨٧٢ ، تم تعيين " وليم چيمس "، مدرساً للفسيولوچيا فى جامعة " هارفارد " وظل على عمله التدريس أربع سنوات ، لكن شغفه بعلم النفس دفعه إلى محاولة التعمق فى دراسة النفس البشرية ، لكنه مضى بعلم النفس شوطاً جديداً فقد دمج علم النفس بالعلم التجريبى .. فوليم چيمس هو الذى حول علم النفس من علم نظرى تجريبى إلى علم تجريبى يقوم على التجربة والاختبار .

وفى عام ١٨٨٧ تزوج وليم چيمس ولأول مرة تعرف حياته الاستقرار بعد رحلة طويلة من القلق والترحال والمعاناة النفسية .

لقد كان من ثمرة هذا الاستقرار إصداره لكتابه الشهير والكبير "أصول علم النفس " ، فقد صدر هذا الكتاب الضخم عام ١٨٩١ ، فى مجلدين كبيرين .. ويعتبر هذا الكتاب نقلة كبيرة فى علم النفس .. فقد شرح فيه وليم چيمس وجهة نظره فى علم النفس التجريبى أو علم النفس المستند على التجربة والدراسات البيولوچيه .. وتناول چيمس التفكير والمعرفة باعتبارهما من الأدوات الضرورية التى تستعين بها فى نضالنا مع الحياة ، كما دافع چيمس أيضاً عن الإرادة والحرية للانسان والاعتزاز بشخصيته ..

كان جيمس قد أنشأ معملاً ليجرى فيه تجاربه عن علم النفس ، وهو يعتبر أول معمل علمى ينشأ فى الولايات المتحدة الامريكية لعلم النفس لكنه بعد فترة شعر أن هذا المعمل لا يتناسب مع طبيعته وميوله الميالة إلى معرفة حقيقة النفس والنزعة الدينية بها .

اتجه جيمس بعد ذلك بتأملاته إلى طبيعة الله ووجوده وخلود النفس وحرية الإرادة وقيم الحياة .. والحقيقة أن تناول جيمس لهذه الأمور التى شغلت البشرية طوال تاريخها .. نقول إن تناول جيمس لها يعتبر ثورة كاملة فى منهاج التفكير أو البحث .

كان " جيمس " باحثاً منقباً – وكما سنرى ذلك – يسير وفق مايراه عقله النشط في مسالك وعرة ، وكان غزير الإنتاج ، فهو يمضى يكتب المقالات ويلقى المحاضرات .. وقد جمعت هذه المقالات والمحاضرات فأسهمت فى إثراء الفكر الإنسانى بمجموعة هامة من الكتب منها كتابه "إرادة الاعتقاد " الذى ظهر عام ١٨٩٧ ، وكتابه " خلود النفس " ، وظهر عام ١٨٩٨ ، وكتاب " أحاديث إلى المعلمين فى علم النفس وإلى الطلاب فى بعض المثل العليا للحياة " ، وظهر عام ١٨٩٩ وكتابه " تنوع التجربة الدينية " وظهر عام ١٩٠٢ .

وكان " جيمس " – كما قلنا – يندفع فى بطء إلى نظرية جديدة فى علم النفس تعتمد على التجربة والبرهان أكثر مما تعتمد على أفكار الجدلية والسفسطية .. وقد تبلورت هذه النظرية عام ١٨٩٨ ، عندما كان يلقى محاضرة فى جامعة " كاليفورنيا "، عن " التصورات العقلية والنتائج العملية " .. كانت هذه المحاضرة بمثابة إرهاصات النظرية "البرجماتية" ، فى علم النفس وهى النظرية التى ضمّنها كتابه عن "البرجماتية" ، وظهر عام

. ١٩٠٦

والبرجماتية تدمج بين الفلسفة وعلم النفس فى سياج من المنهج العلمى التجريبى الذى ثبتت صحته وفعاليته فى الكثير من الميادين العلمية والبرجماتية تعنى بتبسيط الظواهر الفلسفية وتلك التى تعتمل داخل النفس بحيث إنها تعود بها إلى مضامينها الواقعية ، لكنها لا تقف منها موقف الحكم ، فالحكم فى نهاية الأمر يخضع إلى نظرة الشخص وتقديره .

ربما كان ذلك من باب التعميم ، لكننا نعتقد أن الأمر ولا شك يبدو غامضاً غير واضح المعالم ، وهذا ما سوف يكون واضحاً من خلال الأمثلة التى سوف نسوقها فيما بعد :

أما عن آخر أيام وليم چيمس فإننا نترك الدكتور " محمد الشنيطى " ، يحدثنا عنها .. فهو يقول :

" فى سنه ١٩٠٧ ، ألقى "چيمس " ، آخر محاضراته فى جامعة "هارفارد" عن " المدخل إلى الفلسفة " ، وفى ربيع العام نفسه ذهب إلى جامعة " كولومبيا " ، فى نيويورك ليلقى محاضراته عن البراجماتية فكأنما رسول هبط المدينة .

فقد تزاحم الناس بالمناكب لرؤيته والاستماع إليه ، وكان ذلك موضع حفاوة وموطن تكريم فى كل مكان حلّ به .

وكان لهذا اللقاء الطيب أجمل وقع فى نفس الفيلسوف ، كما دُعى لإلقاء محاضرات فى كلية " مانشستر "، باكسفورد ، ونشرت هذه المحاضرات فى كتابه " عالم متعدد " سنة ١٩٠٩ ، وفيه يعرض مذهبه عرضاً مبسطاً فيه المصطلحات الفنية التى تحتشد فى كتابه " التجريبية الأصلية" ..

وفى كتابه " عالم متعدد "، تفسير يتخطى حدود التجربة أحياناً وينطلق

إلى آفاق المتيافيزيقا أو ماوراء الطبيعة .

ثم عاد " چيمس " إلى وطنه وواصل نشاطه بين إلقاء المحاضرات والاشتراك فى المناقشات وعقد الندوات ، ولكنه كان يعانى العلّة ويغالب المرض ، وكان بين حين وآخر يخلو للتأمل والكتابة ، وكان الأمل يراوده فى الوصول إلى رأى حر فى جميع المشكلات الفلسفية التى طالما أضجرته وأرّقته .

وقد بدأ تنفيذ المشروع فى الفصول التى جمعت بعد وفاته فى كتاب " بعض مشكلات الفلسفة " ، ولكن القدر عاجله قبل أن يحقق حلمه ، ولعل القدر كان رحيماً " بوليم چيمس" ، فهو لم يكن من أنصار كتابة مذهب فلسفى كامل ، فقد كان يؤمن بأن ثمّة حقائق جديدة ينبغى ألا نكف عن البحث عنها ، فليس هنالك تمام أو كمال ، وليس هنالك آراء مقطوع بصحتها .. ثم يضيف د / الشنيطى فيقول :

وفى هذه الفترة التى بلغ فيها نشاط " چيمس "، أوجه والتى اشتدت عليه فيهاآلام المرض ، جمع بعض دراسات متفرقه له ونشرها فى كتاب " معنى الحقيقة " عام ١٩٠٩ ، ولم يفقد " چيمس " الأمل فى الشفاء ، فقرر أن يحاول العلاج فى " مانهايم " بألمانيا ، فأبحر مع زوجته إلى هناك فى ربيع عام ١٩١٠ ، ولكنه فى أوربا انشغل مع الناس عن الانصراف إلى العلاج والخلود إلى الراحة ، وعاد مرة أخرى إلى وطنه ، وأقام فى منزله الريفى حيث وافاه الأجل فى أغسطس سنة ١٩١٠ .

## بعض من آراء " چيمس " فى الفلسفة وعلم النفس .

يقول " وليم چيمس " :

" لو أننا قارنا بين أنفسنا كما هى ، وكما يجب أن تكون عليه لوجدنا

أننا أنصاف أحياء ، وذلك بأننا لا نستخدم إلا جزءًا يسيراً من مواردنا الجنسية والذهنية أو بمعنى آخر .. إن الفرد منا يعيش فى نطاق ضيق محدود يصطنعه داخل حدود الطبيعة ، فهو يملك قوى مختلفة الأنواع ، ولكنه يخفق بحكم العادة فى استخدامها " ..

يعكس هذا القول ماتمتاز به فلسفة "چيمس" ، من واقعية قائمة على قدرات الشخص وليس على أحلام وأوهام بعيدة عن الحقيقة .

ويطبق "چيمس" ، نظريته فى البرجماتية على كثير من الآراء المعقدة والمشاكل الكبيرة فى الفلسفة وعلم النفس ونلمح تفسيرات جديدة تصل مباشرة إلى لب المشكلة وتجردها من الشوائب الجدلية وغير المنطقية .

مثلا عملية خلق العالم وهل هى نتاج عمل مادى أو روحى ؟.. إنها مشكلة محتدمة بين المادية والروحية .. والسؤال هل هذا العالم ثمرة التقاء ذرات فى الزمان والمكان أو أن ثمة خالقاً لظواهر العالم جميعا وهو عقل خالص وخير بحت ، يشكل الأحداث بمشيئته ويحرك الظواهر بإرادته .. ماذا يقول چيمس عن هذه المشكلة الفلسفية ..؟.

يضع چيمس ، هذه المشكلة فى سؤال بسيط .. ما الفارق بين اختيار هذا الفرض أو ذاك على ضوء تجربتنا العلمية ؟ لا يلوح أن هنالك فارقاً ما فالعالم وجد والحقيقة القائمة التى لاشك فيها أنه موجود سواء كان ثمرة التقاء ذرات أو من صنع خالق عظيم جبار .. إن هذا لايبدل من الواقع شيئاً فنظريتنا على هذا النحو أو ذاك لن تستطيع تغيير شئ فى هذا العالم الذى يمتزج فيه الخير والشر .

هذا إذن عن الماضى ، لكن ماذا عن المستقبل ؟.. هنا يختلف الأمر كما يقول "چيمس"، فى نظريته عن البرجماتية .

فالمادية تجعل العالم مرهوناً بنشاط قُوى عمياء ، ومن ثم لايتاح لنا الأمل فى أن يستقر شئ ما على الخير ، أو يؤدى إلى قيام أخلاق ثابتة ، فالبداية عدم والنهاية عدم ..

أما الروحية .. فتضع زمام الأمور بين يدى قوة عاقلة ذات أهداف أخلاقية سامية وهى على ذلك تزودنا باليقين فى القيم الروحية .. تلك القيم التى تحفظ للإنسان كبرياءه وتصون له كرامته وتنقذ الإنسانية من الهلاك ، وحتى لو هلك العالم المادى فإن الله يتولانا ويرعانا ويخلق لنا بمشيئته عالما آخر يتيح لمثلنا العليا أن تتحقق ، وعلى ذلك فالروحية تبث فينا الأمل فهى مذهب الثقة والشجاعة .. وهنا نلمس الفارق العملى بين النظريتين فى حياة من يتبعهما أمل فى جانب ويأس فى جانب آخر .

وهكذا يضع "چيمس "، الإنسان أمام حلول عملية أو واقعية لكثير من المشاكل الفلسفية الكبرى كالإرادة والحقيقة ووجود الله وأهمية الدين وغير ذلك من مشكلات اعترضت حياة الإنسانية وأعجزت فيها الفكر والتفكير .

***

# ابن خلدون



## مؤسس علم الاجتماع

يقول المؤرخ الشهير " أرنولد توينبى " ، عن ابن خلدون :

" لقدتوصل ابن خلدون إلى مانسميه اليوم " فلسفة التاريخ " .. هذا أعظم عمل أو تأليف أبدعه فكر فى أى زمان ومكان " .

أما عالم الاجتماع " لودفيج جيلوفتش " ، فهو يقول عن ابن خلدون :

" يقولون إن أوجست كونت ، هو واضع علم الاجتماع ، لكن ثبت لدينا أن ثمة عالماً عربياً جاء فى القرن الرابع عشر ودرس الظواهر الاجتماعية بعقل متزن وأتى فى هذا الموضوع بآراء عميقة جعلت ماكتبه عبارة عما نسميه اليوم علم الاجتماع " .

لقد قيل الكثير عن ابن خلدون ، وقد أنصفه الغرب بعد وفاته بأربعة قرون كان خلال هذه القرون – ومايزال – هو المعلم والرائد لعلم الاجتماع ودراسة التاريخ دراسة تهتم بالإنسان والجغرافيا والظروف المحيطة .. أنه ببساطة هو الرائد – أيضا – لما يطلق عليه فلسفة التاريخ فمن هو أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون ؟.

ولد ابن خلدون عام ١٣٣٢ فى تونس من عائلة أندلسية كبيرة كانت قد رحلت عن أشبيلية عند سقوطها فى أيدى الأسبان .

وكان ابن خلدون شغوفاً منذ صباه بالدراسة والعلم ، وكان ذكياً إلى الدرجة التى جعلته يستوعب علوم عصره .

أثناء ذلك لم ينس ابن خلدون أنه من سلالة أسرة عريقة لابد أن يعيد لها مجدها وثراءها وجعل من هذا الأمل هدفاً فى شبابه .. لذلك رأى أن يتصل بالأمراء وكانت بلاد المغرب قد توزعت بين الأمراء فى بداية انهيار الامبراطورية الإسلامية .

كانت الحروب محتدمة بين هؤلاء الأمراء وكانت المنطقة مسرحاً لكثير من الثورات والمؤمرات والفتن .

فى هذه الظروف التى تتسم بالصراع والقلق كان ابن خلدون يتنقل من ديوان أمير إلى أمير آخر ساعياً وراء الرزق والعلم .. وهكذا جعلته هذه الحياة السياسية المضطربة لزيارة أنحاء شتى من المغرب فقد زار بجاية وبونة وقسنطينة وفاس .. كما ذهب إلى الأندلس سفيراً لأميرها لدى الدولة المسيحية التى قامت فى " قشتاله " بالأندلس ..

كانت الأحداث المتلاحقة والأزمات السياسية والاجتماعية التى تموج بها البلاد تضطر ابن خلدون للمشاركة والتفاعل .. لكنها دفعته دفعاً إلى الدراسة ومحاولة فهم ما يحدث وخرج ذلك كله فى إطار تاريخى .. ماضيه وحاضره .. كان يقضى الوقت فى المعرفة والمشاهدة والمقارنة ثم يقوم بدوره بالاستنباط وتدوين ما يستنتجه .

وأخيراً استطاع أن يستقر فى قلعة ( ابن سلامة فى الجزائر وقضى أربعة أعوام .. من ١٢٧٤ – ١٣٧٨ ) ، وهى الفترة التى كتب فيها مقدمة

تاريخه العام .. هذه المقدمة التى كانت أشهر ماكتب ابن خلدون والتى كانت سبباً – أيضاً – فى شهرة وخلود ابن خلدون فى الفكر العالمى .

بعد ذلك عاد ابن خلدون إلى تونس ليقوم بالتدريس ومتابعة التأليف ثم أراد أن يؤدى فريضة الحج فشدّ الرحال إلى مصر ، لكنه أعجب بما تموج به مصر من حركة ثقافية وفكرية كبيرة مما دفعه هذا إلى المشاركة والدخول فى معترك هذه الحياة الفكرية النشطة .

وبالفعل فما أن حلّ عام ١٣٨٢ ، حتى استقر بالقاهرة حيث ولى منصب قاضى القضاة المالكية كما عمل بالتدريس فى الجامع الأزهر ، وهذا كله لم ينسه هدفه الأول فى الكتابة والتأليف .

وفى القاهرة انغمس ابن خلدون تماما فى العملية التعليمية والتدريس حيث قام بالتدريس فى المدرسة القمحية بجوار جامع عمرو ثم المدرسة الظاهرية البرقوقية .. وفى عام ١٤٠٦ كان ابن خلدون فى دمشق حيث صادف ذلك هجوم القائد التترى " تيمورلنك " ، وكان هذا القائد من الغزاة الدمّويين المشهور عنهم القسوة والتدمير والتخريب ..

استطاع " تيمولنك " ، أن يحاصر دمشق بينما كانت الحرائق مندلعة داخل المدينة .. كان ابن خلدون يعيش ظروف الحصّار وكان يؤمن بقوة العلم وأثره فى تهذيب النفوس وأراد أن يثبت لهذا القائد أن الشعب الذى يعتدى عليه الآن ويحطم مدنه ويقضى على حضارته شعب راق بلغ شأوا فى مدارج العلم والمدنية .. فقد يستطيع أن يهدئ من رغبة التدمير لدى هذا القائد التترى فينقذ جزءًا هاماً من تاريخ الإسلام .

كان ابن خلدون يبلغ الثامنة والستين من عمره عند حدوث هذا الغزو وهذا الحصار .. كان شيخاً كبيرا لكنه آل على نفسه أن يقوم بمغامرة

جازف فيها بحياته من أجل تحقيق هذا الهدف ..

لقد أدلوه بحبل خارج أسوار المدينة المحاصرة ليذهب إلى لقاء "تيمورلنك " .. وقد استطاع ابن خلدون من خلال علمه وإيمانه وما يتمتع به من ذكاء وقدرة على الإقناع أن يهذب من طباع الطاغية السفاح .. بل إن " تيمورلنك" . أحبه وعرض عليه أن يعمل فى خدمته وبذل له كل أنواع الإغراءات ، لكن ابن خلدون رفض وعاد إلى بلده بعد أن حقق ماأراد .

وفى عام ١٤٠٦ ، وكان ابن خلدون قد بلغ أربعة وسبعين عاماً توفاه الله وانتقل إلى جوار ربه حيث دفن بالقاهرة ..

## ابن خلدون .. بين فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع ..

يقول المؤرخ العربى ساطع الحصرى فى كتابه "دراسات من ابن خلدون " ، المنشور عام ١٩٥٣ .. يقول :

" بعد انتشار المقدمة صار علماء الاجتماع والتاريخ والاقتصاد يطلعون على آراء ابن خلدون ويلفتون الأنظار إلى ما يجدون بينها من النظريات القيمة ما حول بعض المسائل التى لم يفرغوا من درسها وبحثها فى المدة الأخيرة .

فقد لاحظوا بدهشة كبيرة أن المعلومات التى كانت مقررة فى تاريخ العلوم المذكورة تحتاج إلى تبديل وتحويل على ضوء الحقائق التى وجدوها فى مقدمة ابن خلدون ، كانوا يزعمون مثلا أن " فيكو " ، هو أول من فكر فى فلسفة التاريخ ولكنهم علموا بعدئذ أن ابن خلدون كان قد فعل ذلك فى مقدمته قبل " فيكو "، بمدة تزيد على ثلاثة قرون ونصف .

وقد وجدوا أن كثيراً من الآراء والمبادئ التى قال بها علماء الاقتصاد

ومفكرو الاجتماع مثل " چان بابتست " و " كارل ماركس " و " باكونين " ، فى أواسط القرن التاسع عشر كانت مسطورة فى المقدمة التى كتبها ابن خلدون فى القرن الرابع عشر " ..

لقد كان التاريخ قبل ابن خلدون يعتبر فناً من الفنون يكتبه المؤرخ الفنان على هواه وبناء على فكرة معينة يؤمن بها ، يلوّن بها التاريخ ويفسر من خلالها الوقائع والأحداث ويصدر تبعاً لها الأحكام ..

وهكذا حفلت كتب التاريخ بظواهر وأحداث لا تمت إلى الحقيقة بصلة وأصبح من أصعب الأمور تمييز الغث من الثمين .. أما ما فعله ابن خلدون فكان ثورة فى كتابة التاريخ .. وقد أراد لنفسه طريقاً فى كتابة التاريخ وتدوينه .. وهذا ما اتفق على تسميته بفلسفة التاريخ .. وقد اتصفت طريقته فى كتابة التاريخ بالنقاط الآتية :

١ – إن حوادث التاريخ ترتبط أشد الارتباط بالواقع الذى تنبع منه .

٢ – إن هذا الواقع أشبه بالنسيج الحى وهو يتكون من عديد من العناصر والعوامل وهى تختلف من عوامل اقتصادية ودينية وثقافية وسياسية وعسكرية .

٣ – إن الفروق بين الأمم والأمصار إنما ترجع إلى هذه العوامل والظواهر الاجتماعية فعلى المؤرخ إذن – وكما يقول ابن خلدون – أن يغوص وراء حقائق التاريخ بحثاً عن العلل والأسباب البعيدة ثم التعليل الشامل الذى يعطى للظاهرة التاريخية منطقها ومسارها وبذلك يكون التاريخ علماً لا فناً .

ثم يضع ابن خلدون عدة قواعد ينصح بها المؤرخ لكى يحقق المنهج التاريخى .. وهذه القواعد هى :

١- ان يبتعد عن الهوى والتشيع وأن يكون موضوعياً خالصاً فى دراسته

٢ - أن يبحث دائما عن اعلل والأسباب الخفية فلا شئ يرجع للصدفة وتظهر أسبابه وعلله بالبحث والتنقيب .

٣ - أن ينظر إلى الظاهرة التاريخية من خلال العصر الذى حدثت فيه حتى يتبين مدى معقوليتها قبل أن يضمها تاريخه .

٤ - أن يداوم على الملاحظة والبحث والمقارنة والتسجيل والتعليل .

٥ - أن يضع نصب عينيه أن ظواهر المجتمع ليست ساكنة وإنما هى فى حركة دائمة .

هذه هى النصائح التى يسديها ابن خلدون لكل مؤرخ والتى تكشف لنا عن عقلية فذّة لا ترصد الظواهر فحسب بل وتبحث فى أسبابها وعلّة حدوثها وتربط هذا كله بالماضى والحاضر وتتطلع إلى المستقبل .

لقد اكتشف ابن خلدون قواعد المنهج العلمى والبحث التاريخى وهو مااقتضى من أوربا بعلمائها ومفكريها قروناً طويلة لتصل إلى ما وصل إليه الرجل .

لكن هذه النظرية العلمية للتاريخ وهذا النهج التاريخى الجديد الذى أراد ابن خلدون بوضعه أن يضمن سلامة عملية التأريخ جعله يكشف علماً جديداً لم يكن للبشرية به سابق عهد أو معرفة .. هذا العلم هو علم الا جتماع كما يعرف الآن أو علم " العمران البشرى " كما أسماه ابن خلدون .

يشير ابن خلدون فى مقدمته إلى أن الظواهر الاجتماعية لا تسير كيفما اتفق وإنما تخضع لقوانين تنظمها وتكشف عن مسارها .. ومن ثم فهو يرى أنه لابد من دراسة هذه الظواهر دراسة وضعية كما تدرس ظواهر العلوم

الأخرى للوقوف على طبيعتها وما يحكمها من قوانين .. وعلى هذا البحث وقف دراسته فى المقدمة ..

يقول ابن خلدون عن دراسة علم الاجتماع ..” وكأن هذا العلم علم مستقل بنفسه فإنه ذو موضوع وهو العمران البشرى والاجتماع الإنسانى وذو مسائل وهى بيان ما يلحقه من العوارض لذاته واحدة بعد الأخرى ، وهذا شأن كل علم من العلوم وضعياً كان أو عقليا" ..

ويقرر ابن خلدون – بنفسه – أن ظواهر علم الاجتماع على هذا الوجه لم يسبقه أحد إليه .. فهو يقول :

" واعلم أن الكلام فى هذا الغرض مستحدث الصنعة غريب النزعة ، غزير الفائدة ، أعثر عليه البحث وأدى إليه الغوص ، وليس من علم الخطابة الذى هو أحد العلوم المنطقية فإن موضوع الخطابة إنما هو الأقوال المقنعة النافعة فى استمالة الجمهور إلى رأى أو صدهم عنه ولا هو أيضاً من علم السياسة المدنية إذ أن السياسة المدنية هى تدبير المنزل أو المدينة بما يجبُ بمقتضى الأخلاق والحكمة ليحمل الجمهور على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقاؤه فقد خالف موضوعه هذين العلمين اللذين ربما يشبهانه ، وكأنه علم مستنبط النشأة ، ولعمرى لم أقف على الكلام فى منحاه لأحد من الخليقة وما أدرى لغفلتهم عن ذلك وليس الظن بهم " ..

والظواهر الاجتماعية عند ابن خلدون لها طابع الشمول ولا ترجع إلى عامل واحد أو مجموعة من العوامل ، وإنما ترجع إلى مجموعة الظواهر المشكلة للواقع موضوع الدراسة والبحث والظواهر الاجتماعية متداخله متشابكة متفاعلة .. أى يؤثر كل منها فى الآخر ويتأثر به فالبيئة الجغرافية تؤثر فى نشاط الإنسان وتحدد مجاله الاقتصادى وهذا يتلون بدرجة

تحضره وثقافته وينعكس هذا على أخلاقه وعاداته وتقاليده ويتلوّن كل هذا بلون معتقداته وديانته .. ومن خلال هذه الظروف تتشكل نفسيته وهكذا .. وهذه النظرة هى التى انتهى إليها علماء الاجتماع المحدثون .

وكان ابن خلدون يرى أن المجتمعات تشبه في حياتها الكائنات الحية لها ميلاد وطفولة ونضج ثم انحلال .. وهو بهذه الفكرة يسبق ما اعتمده علماء أوربا بعد ذلك بقرون من تفسير الحركة داخل المجتمع من خلال نظرية التطور .

ويفسر ابن خلدون نشأة المجتمعات على النحو التالى وكما يشرحه فى مقدمته يقول :

" إن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وركّبه على صورة لايصح حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء .. وهداه إلى التماسه بفطرته وماركب فيه من القدرة على تحصيله إلا أن قدرة الواحد من البشر مقصورة على تحصيل حاجته من ذلك الغذاء ولو فرضنا منه أقل ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الحنطة مثلا فلا يحصل إلا بعلاج كبير من الطحن والعجن والطبخ .. وكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعين وآلات لاتتم إلا بصناعات متعددة من حداد ونجار وفاخورى ، فالضرورى إذن اجتماع القدر الكبير من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم " ..

والحقيقة أن مساهمات ابن خلدون للعلم والإنسانية امتدت لأبعد من التاريخ وعلم الاجتماع إلى علم التربية والمفاهيم التى لا تختلف كثيراً عما وضعه علماء التربية المحدثين ، كما أنه سبق " مالتوس " بأربعة قرون فى وضع نظرية فى تزايد السكان والعوامل التى تزيد عدد السكان أو تلك التى تحد من تكاثر السكان .

حقاً لقد كان ابن خلدون موسوعة كبيرة وأنه بما قدم للبشرية قد سبق عصره بقرون كثيرة وهو من النادر أن يجود الزمان بمثله ..

أخيراً نردد قول المستشرق " كارادى " ، فى الجزء الأول من كتابه " مفكرو الإسلام " ، فهو يقول عن ابن خلدون :

" أنجبت أفريقيا الإسلامية عالماً اجتماعياً من الطبقة الأولى هو ابن خلدون الذى لم يسبقه عالم استطاع أن يقدم تصوراً لفلسفة التاريخ بمثل هذه القوة والدقة والعمق فقد خاض فى مقدمته المشهورة فى أحوال الأمم المادية والروحية وتعرض لأسباب نموها وانحلالها والأطوار التى تمر بها وتحدث عن تنوع المدنيات وأسباب هذا التنوع .. ولم نجد فى أوربا إلا فى القرن الثامن عشر أناساً حاولوا أن يستخرجوا أسرار التاريخ ولما فعلوا وجدوا أن ابن خلدون قد سبقهم إلى ذلك ومهد لهم الطريق " ..

***



# عبد العزيز آل سعود

## عبد العزيز آل سعود وحكمة الحكم

" المدنية الصحيحة هى التقدم والرقى ، والتقدم لا يكون إلا بالعلم والعمل ، إن حالة المسلمين اليوم لاتسر ، وإن الحالة التى هم عليها لا يقرّها الإسلام ، يجب على المسلمين أن يتدبروا موقفهم جيداً ، ويعملوا لتطهير قلوبهم من الأدران التى علقت بها فالموقف دقيق " .

قائل هذه العبارة الملك عبد العزيز آل سعود ، قالها منذ سبعين عاما وبالتحديد فى يونيو ١٩٢٧ ، لكن ألا ترى - عزيزى القارئ - أن هذه الكلمة هى ما ينطبق على حالنا اليوم ؟.. لقد بلغت حكمة هذا الرجل أنه تجاوز بها ما يزيد عن نصف قرن ليشرح حال المسلمين اليوم .

والحقيقة أن الملك عبد العزيز كان رجل عصره بحق ، بل إنه أحد القادة العظام الذين أنجبتهم أمتنا العربية خلال عقد كامل من الزمان ، لقد بلغ من الحكمة ونفاذ البصيرة ما جعله يحقق أهدافاً كبيرة عجز الكثيرون عن تحقيق أقل منها بكثير .. بل إنه يعد بمثابة مثال ليس له مثيل فى القيادة والحكمة وقوة الإرادة .. لنسمعه يقول :

" إن المسلمين متفرقون اليوم طرائق بسبب إهمالهم العمل بكتاب الله وسنة رسوله ، ومن خطل الرأى الذهاب إلى أن الأجانب هم سبب هذه التفرقة وهذه المصائب ، إن سبب بلايانا من أنفسنا لا من جانب الأجانب ، والله إنى لا أخشى الأجانب بقدر ما أخشى المسلمين إنى أخاف من المسلمين أكثر مما أخاف من الأجانب فالمسلمون هم بلاء أنفسهم ، يأتى أجنبى الى بلد ما فيه المئات بل الألوف بل الملايين من المسلمين ، فيعمل عملاً بمفرده فهل يعقل أن فرداً فى مقدوره أن يؤثر على ملايين من الناس ، إذا لم يكن له بين هذه الملايين أعوان يساعدونه ويمدونه بآرائهم وأعمالهم ؟.. كلا ثم كلا .. فهؤلاء الأعوان هم سبب بليتنا ومصيبتنا أجل إن هؤلاء الأعوان هم أعداء الله وأعداء أنفسهم ، إذاً فاللوم والعتاب واقع على المسلمين وحدهم ، لا على الأجانب .. إن البناء المتين الصلب لا يؤثر فيه شئ ، مهما حاول الهدّامون هدمه ، إذا لم تحدث فيه ثغرة تدخل فيها المعاول كذلك المسلمون لو كانوا متحدين متفقين لما كان فى مقدور أحد تفريق صفوفهم وتفريق كلمتهم " ..

كان الملك عبد العزيز يسير مع حركة التاريخ .. فهو يدرك جيداً متى يمضى ومتى يتوقف .. كانت حركته مع الجماهير ومن أجلها ، لذلك لم يفرط فى سيادة ولا احتاج يوماً لحمايته ضد العرب أو ضد شعبه .

إن ابن سعود لم يرفع لا راية إنجليزية ولا تركية بل راية السعوديين التى لم تتغير خلال ثلاثة قرون .. " لا إله إلا الله " ..

بل إن الملك عبد العزيز هو وحده من بين كل الذين ثاروا على الدولة العثمانية وحاربوها ثم انتصروا عليها ، استطاع أن يحقق هذا الدور المستحيل ، فلم يضرب الدولة العثمانية من الظهر أبداً ، أى وهى منشغلة

فى حرب مع عدو أجنبى ..

فقد فشلت كل محاولات الانجليز معه لينضم إلى الطاعنين فى ظهر الدولة العثمانية الجريحة ، رفض واستطاع أن يقنع الإنجليز - بمنطقه العجيب - أن مصلحتهم هى فى عدم انضمامه إليهم يقول للمندوب البريطانى :

" نحن متهمون بالدعوة إلى مذهب خامس فقيامى معكم ورفع رايتى المنقوش عليها " لا إله إلا الله " ، إلى جانب رايتكم أمر غير نافع لى ولكم .. هل أترك الناس يقولون عنى أننى ثرت على دولة تحمل اسم الخلافه فى محنتها ؟".

كان الملك عبد العزيز عندئذ ضعيفا فقد كان يرهن سيفه ويقترض ألفى جنيه ، ومع ذلك كان أبياً مترفعا يحاور الإنجليز فى عزّ قوتهم بكبرياء وشمم لقد اضطرهم أن يحصلوا منه على وعد بأن يقف على الحياد .. الحياد فحسب ..

كان عبد العزيز هو وجده الذى خرج بحصة عربية إسلامية مستقلة من تركة الدولة العثمانية وكأنه كان ضمن القوى العظمى التى خاضت الحرب العالمية الأولى .. لقد كان يردد باستمرار وكما قال لممثل بريطانيا :

" أنا مسلم أولاً وعربى ثانياً " ..

## لمحات من حياته وحكمته .

ولد عبد العزيز بن عبد الرحمن فيصل بن تركى فى ديسمبر عام ١٨٨٠ ، جاءت ولادته فى وقت شهد انهيار الدولة العثمانية واهتزت مكانة الإسلام بشدة ، وأصبح لأوربا اليد العليا فى التحكم فى الشعوب العربية والإسلامية .

بعد مولده بقليل تم تقسيم إيران بين روسيا وبريطانيا ، وبدأت الدول الأوربية تتصرف فى الدولة العثمانية المسلمة تصرفها فى زنوج أفريقيا وبؤساء الهند ، فقد اجتمع إدوارد السابع ملك بريطانيا مع قيصر روسيا فى بحر بلطيق ، وبعد الاجتماع فوجئ الأتراك بالسير " ادوار جراى " ، وزير خارجية بريطانيا يعلن فى مجلس العموم البريطانى قرار تعيين حاكم أوربى لمقدونيا ( المسلمة ) ، وتخفيض الجيش التركى فى هذا الاقليم العثمانى دون أن يكون لتركيا صاحبة السيادة على الإقليم أى دخل أو حتى مشاورة أو سابق علم بالقرار .

لقد دخل طرد الإسلام من أوربا مرحلة التنفيذ النهائى بطرد السلطة العثمانية من أوربا وإبادة السكان المسلمين هناك إما بالقتل أو بإجبارهم على الهجرة أو تبادل السكان أو تنصيرهم وقد وصل ذلك المخطط ذروته عشية الحرب العالمية الأولى بحرب البلقان وما سبقها وتلاها من قرارات ومعاهدات أخرجت تركيا نهائياً من أوربا باستثناء الشاطئ الأوربى لمدينة اسطنبول .

ثم جاء الدور على القسم العربى أو ما تبقى منه فى الحرب العالمية الأولى ، فأعلنت الحماية على مصر واقتسم الإنجليز والفرنسيون واليهود .. العراق والشام ..

لكن فى رقعة واحدة من العالم الإسلامى ، كان التاريخ يسير فى الاتجاه المضاد .. كانت هناك شخصية عربية رائدة استطاعت أن توظف التاريخ لخدمة أهدافها فأصبحت كل الأحداث لمصالحه كل الوقائع .. الانتصارات والهزائم ، والتوفيق والفشل ، الاخلاص والخيانة ، الوفاق الدولى ، الصراع العالمى .. كله يعمل لصالحه .. إنه الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن بن

لقد عرف ابن سعود كل القوانين التى تتحكم فى موقعه الجغرافى والبشرى والتاريخى ، فاستطاع أن يوظف هذه القوانين لمصلحته .. لقد وعى لعبة الأمم والتفوق الساحق لبريطانيا وانهيار الدولة العثمانية فاستفاد من هذا الواقع دون أن يسقط فى خطيئة التحول إلى أداة لبريطانيا ، بل بدا فى أكثر من مرة وكأنه يوظف الامبراطورية البريطانية لخدمة أهدافه .

كان ذلك يرجع إلى تمتعه بصفتين نادرتين وضروريتين لمن أراد أن يبنى دولة ويحرك التاريخ .. الأولى .. هى القدرة على فهم حركة التاريخ ومن ثم ربط مصلحته بالقوى الصاعدة المنتصرة فيصبح شريكاً فى النصر وليس عميلاً أو أداة ، بل ويفرض على خصومه المخالفات الخاطئة مع القوى المنهارة فيسقطون معها .

أما الصفة الأخرى فهى قدرته العجيبة على إقناع الآخرين بأن مصلحتهم هى فى تبنى مصلحته هو فيعملون على تحقيق أهدافه وهم على قناعة تامة بأنهم يحققون أهدافهم هم .. أضف إلى ذلك موهبة شخصية وهى ما اصطلح على تسميته " بالكاريزما " أو الشخصية الزعيمة . . لقد أجمع الكل على وجود هذه الشخصية بكل ملامحها ومميزاتها عند الملك عبد العزيز آل سعود .. إنه أشبه بالشموس الكبيرة التى تدفع أى كائن للدخول فى فلكه ليتحول إلى كوكب يدور سعيدا حول ابن سعود ، أو كما قيل ، لم يجتمع بأحد إلاّ وخرج من عنده مبهوراً ..

عندما ظهر الملك عبد العزيز كان البيت السعودى يواجه خلافات وصراعات شديدة وكان واضحاً أن هذا البيت آخذ فى الانهيار خاصة بعد وفاة جده فيصل بن تركى .. لكنه أى عبد العزيز .. استطاع بعبقريته وذكائه

كرجل دولة أن يواجه الخلافات فى البيت السعودى وأن يقضى عليها .. لقد استطاع بمهارة أن يحسم الأمر .

كان أبوه الإمام عبد الرحمن رجلاً لينا ولكنه فى نفس الوقت كان قاطعاً كالسيف ، لقد قاتل قدر استطاعته لينفخ الحياة فى بيت فقد الحيوية ومزقته الهزيمة .. لكنه نفض يديه مقتنعا بأن الظرف أكبر من الرجال ..

هذا الشيخ ( الأب) كان يتمتع بنظرة صائبة وفهم شديد الوعى أو شديد الواقعية لمعنى السلطة ، إذ لما فتح عبد العزيز الرياض فى عملية تحمل مسئوليتها كاملة ، قراراً وتنفيذاً ، بادر أبوه بالتنازل له عن الإمارة وكان ذلك قراراً موفقاً من جميع الوجوه ، إذ لم يكن من حسن التدبير أن تعود الراية لاسم هزم وشرد بل من مصلحة القضية والبيت المالك أن يطرح اسم جديد ، وجه جديد بلا هزيمة بل يبدأ تاريخه بنصر كالأعجوبة .

والنقطة الثانية والأهم هى أنه لو قبل عبد الرحمن عرض ابنه وتولى عبد الرحمن أو استأنف إمارته لأصبح كل أولاده شركاء لعبد العزيز فى الميراث ومن ثم ينفتح باب الصراع التقليدى بين الأخوه ، ولكن التأكيد على أنه انتصار عبد العزيز الخاص ، له وحده ، لا يشاركه فيه أحد ، فهو الذى صمم وهو الذى نفذ وهو الذى انتصر .. هذا الحق أنهى أى احتمال لمنازعة الأشقاء وجعلهم جميعاً يلتفون حول القائد عبد العزيز.

والمراقب لسيره الملك عبد العزيز يجد أن علاقته بأبيه كان يميزها الاحترام والسلوك النابع من التقاليد العربية والتربية الاسلامية .. ونلاحظ أنه فى قضايا الحكم والسلطة لا تتحكم فيه العواطف حتى فى علاقته مع أبيه ، لكنه مع ذلك لا ينسى آداب السلوك .. فحتى فى اللقاء الحاسم الذى جرؤ فيه لأول وآخر مرة على معارضة أبيه وإملاء رأيه عليه وذلك عندما خرج

لفتح الرياض للمرة الثانية .

فقد فرش عباءته لأبيه وأجلسه عليها ، وما أن تم فتح الرياض وحسمت قضية الحكم حتى أصبح الابن البار لأبيه ، فهو يحول كل المكاتبات – تأدباً – إلى أبيه ، وكان الشيخ حكيماً فلم يكن يفتح خطاباً واحداً مما يحيله ابنه له ، بل يعيدها إليه كماهى .. ويقول لمن يسأله تبرير ذلك : هذا رجل موفق خالفناه كثيراً ثم تبين أن الحق معه فلا جدوى من مناقشته فمصلحة الدولة تتطلب ذلك .

لقد مكنت هذه العلاقة الخاصة بين الولد وأبيه ، مكنت عبد العزيز من مواصلة حروبه بعيداً عن العاصمة وهو مطمئن تمام الاطمئنان لأن أباه يدير العاصمة وشئون الدولة أثناء غيابه وما من أحد يمكن أن يؤتمن على مصلحة البلاد أكثر من الوالد ، فحتى الابن يمكن أن ينقلب على ابيه ويتعجل السلطة إلا الأب فهو وحده الذى يتمنى لابنه مستقبلاً ومجداً وحظاً أفضل مما يتمنى لنفسه .

ونقف قليلاً عند قصة الوداع الأخير بين الملك عبد العزيز وأبيه ، وكان ذلك قبل سفر الملك إلى الحجاز عام ١٩٢٨ .. تقول القصة :

فدخل على أبيه يودعه وكان يخشى أن يكون هذا الوداع هو الأخير فكان يقّبل يديه ويسأله : هل أنت راضٍ عنى ؟.. فيجيبه الإمام الأب وهو جلد صبور – لاشك .. فيعود إلى يديه يقبلهما ويعيد السؤال .. و [illegible]دى هل أنت راضٍ عنى ؟.. فيجيبه .. لاشك فى ذلك ومازال يكرار السؤال – ووالده يجيبه من داخل صدره برضاه حتى شفى نفسه".

أما المرأة فقد كان لها دور كبير فى حياته .. ولنتوقف أولا عند الأم .. والدة الملك عبد العزيز .. فقد تزوجها رجل عادى فلم تنجب منه وحملّها

الزوج مسئولية هذا العقم فطلقها وتزوجت من بعده عبد الرحمن بن فيصل فأنجبت منه عبد العزيز ..

أما عمته فلها دور كبير في نشأة الملك عبد العزيز ، فهي التي حمّلته الرسالة ولقّنته وكان لايزال طفلا مسئولياته في إعادة بيت آل سعود ..

وكان عبد العزيز يعتز بأخته " نوره " ، وكان يهتف باسمها في الحروب أو مواقف النخوة فيقول هاتفا .. " أنا أخو نوره " ، وكانت أخته مستشارته الأولى في شئون بيته ومدبرة قصره حتى وفاتها عام ١٩٥٠ .

ومن بين زوجات الملك تحتل زوجته " جوهرة "، المكانة الأعظم ، و " جوهرة " أم الملك خالد والأمير محمد والتي يعتبر زواجه منها قصة حبه الأولى .. كان الملك وحتى بعد وفاتها عام ١٩١٩ ، لا يذكرها إلا وتقف الغصّة في حلقه وقد احتفظ بحبه لها وحدها من دون نسائه جميعاً وكان ينظم لها الأشعار الغرامية وكثيراً ماكان يقول :

" كلما أظلمت الدنيا في عيني ولم أتبين طريقي للخروج من المتاعب والأخطار التي تحيط بي ، كنت أجلس وأنظم قصيدة لجوهرة ، وعندما أفرغ منها كنت أشعر أن الدنيا تتفتح لي فأعرف ماكان علي أن أفعل " ..

ويقول الملك عبد العزيز عن ذلك في موضع آخر :

" كنا على مرأى من الهفوف ومن الرابية التي كنت جالساً عليها ، استطعت ان أرى بوضوح أسوار القلعة الحصينة التي كانت تشرف على البلدة ، كان فؤادي مثقلاً بالحيرة كنت أوازن بين فوائد هذا العمل وأخطاره لقد شعرت بالملل وبالشوق إلى السلام والحنين إلى البيت .. وعندما فكرت في البيت رأيت وجه زوجتي جوهرة ماثلاً أمامي .. وبدأت أفكر في بعض الأبيات التي يمكن أن أقولها لو كانت حينذاك إلى جانبي .. دون أن أشعر

وجدتنى منشغلاً بنظم قصيدة لها ، ناسياً بالكلية اين كنت ، ومبلغ الخطورة فى القرار الذى كان على أن أتخذه ، وحالماً أصبحت القصيدة جاهزة فى فكرى كتبتها على ورقة ووضعتها فى مظروف ختمته وناديت واحداً من سعاتى وأمرته قائلاً : "خذ أسرع وسلّم هذا إلى أم محمد " ..

وقد توفيت الملكة جوهرة بعد زواج دام ٢٤ سنة ، وقد ماتت ميتة فجائية غريبة فقد أصيبت بأنفلونزا حادة ، انتزعتها من قمة الحياة والحب فى أقل من ٢٤ ساعة ، فلا شيخوخة تطفئ لوعة الفراق وتخبو معها الحياة شيئاً فشيئاً فتهيئ النفس للمصير المحتوم ولا مرض طويل يجعل الموت إحدى الراحتين ، بل ضربة صاعقة ، ضاعف من مرارتها أنها جاءت فى سنوات عجاف .. سنوات عانى منها عبد العزيز من الحصار وتدخل الإنجليز لصالح أعدائه .. لكن الملك الصبور العنيد الواثق من مرور الأزمة بانتصاره يحقق هدفه ويخرج من أزمته على الصعيد العاطفى والسياسى صلباً قوياً ثابت الخطو .

لم تكن الملكة " جوهرة " هى أول زوجات الملك عبد العزيز ، بل إن أولى زوجاته كانت أعرابية من الكويت ، أما والدة تركى والملك الأسبق سعود فهى " وضحه "من بنات شيوخ بنى خالد وزوجته الثالثة هى " طرفه " والدة الملك فيصل وتزوجها بعد فتح الرياض .

كان الملك عبد العزيز يتمتع بفحولة لم تعرف لرجل من قبله أو بعده ، لكنها لم تشغله عن الملك بل لعلها كانت إحدى الوسائل الفعالة لتثبيت هذا الملك ، ولا استطاعت أن تفرض نفسها على سلوكه ومواقفه ووعيه الشديد بمسئوليته كطالب ملك وصاحب رسالة ومؤسس دولة .

قيل إنه عندما كان فى الكويت وكان لايزال شاباً مراهقاً سمع أن بعض

أصدقائه يستفيدون من الجو الخاص فى الكويت بتصريف الكبت الجنسى مع بعض الفتيات فأراد مشاركتهم ولكن صديقاً واعياً بمسئوليات الملك منعه بشده فاستغرب عبد العزيز ذلك وقال له : " ولماذا تفعل أنت ذلك إذا كنت تراه معيبا ؟ " .. فرد ذلك الصديق النادر " هو لا يعنينى ولكن أنت عبد العزيز آل سعود ، أنت طالب ملك .. لايجوز لك ياعبد العزيز مايجوز لنا " ..

يقول " فيلبى " فى كتابه " قلب الجزيرة " :

" إن عبد العزيز لم يكن يستطيع أن يختم القرآن أكثر من ٤ مرات فى رمضان كل سنة ، بسبب مشاغل الدولة ، وفى رمضان ينام ساعة بعد الفجر وساعتين ونصف بعد الضحى وساعة بعد صلاة العصر وثلاث ساعات عل الأكثر فى الليل وقد عوّد نفسه طوال حياته على نوم ساعات قليلة تقسم على فترات " ..

يقول شاعره يصفه :

فلا شارباً خمرا ولا سامعاً          غنى إذا نقرت أوتاره للترنم

لقد كانت تقاليد عبد العزيز ونشأته تمنعه من شرب الخمر أو الغناء والترنم أو حتى التدخين كما كان شديد التقشف .

والتقشف كان ضروريا لأن الدولة كانت تعانى فقراً حاداً ، وصل فى إحدى المرات إلى ماورواه بنفسه :

" لقد بلغ بى الفقر حداً جعلنى أرهن سيفى المرصّع بالجواهر الذى أعطاه لى الشيخ مبارك ، ولم أكن أستطيع أن اشترى سجادة استلقى وأصلى عليها فكنت أستعيض عنها بأكياس فارغة " .

وعندما استولى ابن سعود على الأحساء ، لم يكن أحد يعرف أنها تضم

أضخم مستودع للنفط فى العالم وأنها ستدر يوماً ما نصف مليار ريال فى اليوم الواحد ، ولكن حتى بعدما اكتشف النفط وتصاعدت إيراداته بسرعة الصاروخ ، لاأظن أن ابن سعود أو أحداً بعده قد فرح مثل فرحته يوم فتح الأحساء ، عندما تقدم محمد افندى مدير مالية الأحساء فى الإدارة التركية يزف للملك نبأ وجود عشرة آلاف ريال فى القصر أصبحت من حق الغازى ، فاتح الأحساء .. ويقول عبد العزيز :

" فنزلت عن فرسي وسجدت لله شكراً إذ ملكنى يوماً من الأيام عشرة آلاف ريال " ..

وحتى عام ١٩٣٩ ، كانت ميزانية المملكة لا تتجاوز مليونى جنيه مصرى أو ما يعادل عشرة ملايين دولار حين ذاك .

كانت المسئوليات التى حملها عبد العزيز ورغبته فى بناء الدولة ونشر الإسلام عبر البلاد تحتاج جسداً من نوع خاص .. جسداً لا يصيبه الإرهاق بسهولة ويكون لصاحبه طاقة ليس على التحمل فقط ولكن على تجاوز الصعاب والأزمات أيضاً .

يصف " ضارى الرشيد " ، الملك عبد العزيز فيقول :

" هو رجل مديد القامة حتى إنه لم يكن فى نجد اليوم أطول منه وهو مع ذلك متناسب الأعضاء ، حسن الوجه أبيض وشعره أسود خفيف اللحية والعارضين وهو جوّاد محبوب ذو رأفة فى عشيرته وممالكه "

كل الذين عرفوا الملك عبد العزيز وعايشوه يقولون إنه كان يتمتع بقوة جبارة فى السيطرة على جسده الكبير .. ومما يروى عنه فى هذا المجال قصتان تكشفان هذه القوة الخارقة التى كان يتمتع بها .

القصة الأولى وكان ابن سعود فى شرخ الشباب عندما اقتحم " بيت

عجلان ، كان عليه أن ينتظر حتى الفجر ليقوم بالخطوة التالية وهى ساعات تتوتر فيها أعصاب أشجع الشجعان ويفر النوم من كل عين فهو داخل بيت عدّوه فى مدينة يسيطر عليها هذا العدو وعلى مرمى السهم من الحصن ، وصرخة امرأة – ولو من الرعب – يمكن أن توقظ المدينة كلها وتثيرها ضد هذا المجهول ، صرخة واحدة أو اشتباه حارس أو غلطة من أحد المرافقين يمكن أن تضع حداً لحياته ومغامراته والقضية التى خاطر فى سبيلها ، ولكن لأنه لا يمكن فعل شئ حتى الفجر والأنتظار يرهق الجسد ويتلف الأعصاب ومعركة الفجر تحتاج لطاقة كاملة .. إذا لابد من النوم ..

إذن ليتمرد الجسد لتصرخ الأعصاب محتجة ولكنه قرار عقلى وإذا قرر عقل ابن سعود فلابد أن يطيع الجسد .. وقد كان .. ونام .

أما القصة الثانية فهى أشبه بالمعجزات أو ما جاء بالأساطير .. فالمعروف أن ابن سعود عندما مات كان بجسده ٤٣ طعنة .. أما أشهر قصص ما جاء بإصاباته فهى حادثة انفجار حزام رصاص فى بطنه فعندما نزل عن صهوة جواده ليقبل جثة أخيه سعد أصابه المتريصون بطلقة فجرّت خمس رصاصات كانت فى حزاق فشقت بطنه بجرح طوله ١٥ سنتيمتراً ولكنه تحامل وتكتم الأمر طوال الليل وعندما عرض إصابته على مرافقيه قال لهما لو علم أحد بها قتلتكما .. بل تذهب الرواية إلى أبعد من ذلك فتحكى أنه فى هذه الليلة – نفسها – دخل الأحساء راكبا فرسه وجلس فى القصر وخطب وتزوج وذلك حتى لا تتحول الإشاعة إلى كارثة بإصابته وقوته .. وقد جاء وصف هذا الحادث فى تقرير بريطانى يقول بالنص :

"من القيادة العسكرية بالبصرة إلى القائد العام فى مصر وصورة إلى سكرتير حكومة الهند .. بتاريخ ١٩ ديسمبر الساعة السادسة صباحاً

بالإشارة إلى المذكرة بتاريخ ٤ ديسمبر ١٩١٥ من الوكيل السياسى فى البحرين إلى المقيم السياسى فى البصرة أفاد طبيب ابن سعود الذى بعثت بمعلوماته تلغرافيا إليكم ، أبلغنى أن ابن سعود جرح جرحاً خطيراً فى قتال ليلى فاشل ، قتل فيه أخوه كما جرح مرة ثانية فى القتال التالى ".

لاشك أنها شجاعة نادرة من ابن سعود وقوة بأس ليس لها نظير .. ويتحدث هو نفسه عن هذه الشجاعة فيقول :

" لست أشجع الناس ولكن إذا كانت المعركة ذات بال وسيعقبها أمر فاصل وعزيزة المسلمين فى خطر فإننى آتى من الأعمال بما لأيأتينه غيرى فى المعركة " ..

ولعلنا نتذكر قصة عنترة بن شداد عندما تحدث أحدهم إليه عن شجاعة وقوة تحمله وكان يسأله عن السر فى ذلك .. فطلب من محدثه أن يضع يده فى فمه وسوف يضع هو – أى عنترة – يده فى فم محدثه أيضا ثم يضغط كل منهما بأسنانه على يد الآخر والأضعف من يصرخ قبل زميله وبالفعل ثم ذلك فإذا محدث عنترة – أو متحديه – يصرخ من الألم .. فنظر إليه عنترة ثم قال .

" إذا تحملت قليلاً وصبرت لكنت صرخت أنا " ..

نفس القصة يرويها عبد العزيز ، ولكن بصورة أخرى مشيراً إلى شجاعتة وقوة تحمله .. فهو يقول :

" بعض الناس يصفنى بالشجاعة .. وماهى الشجاعة ؟.. كنت فى بعض أسفارى مع اثنين من أصحابى ، أحدهما فيصل الدويش ، وخرجت علينا خيل فهلع قلبى ولكنى تجلّدت خوفاً من العار ، ومالبث صاحباى أن هربا فتبعتهما ، ولو هربت قبلهما لفضحانى بين العرب " .

وبجانب هذه الشجاعة وقوة التحمل والجلد فقد كان عبد العزيز عادلاً عدلاً يقترب من عدل الأولين والصحابة من المسلمين .. وهناك أمثلة وقصص كثيرة تفوح منها رائحة عدل الملك ومحافظته فى نفس الوقت على هيبة الحكم وقوة الدولة .. وقد جاء فى تقرير أمريكى قصة تحكى عن عدل الملك ومدى حرصه على ذلك .. وإليكم هذه القصة :

" يقول التقرير إن الشيخ " أبوباز "، وكان واعظاً فى الخرج ، خطب يحرض ضد الملك الذى كان قد استقدم خبراء أمريكيين لتطوير الزراعة فى المنطقة وهذا هو الهم الدائم لعبد العزيز ، فلما تفجر النفط لم ينس الملك الزراعة بل حاول أن يوظف مال النفط فى الزراعة ، ولكن الشيخ " باز " ، رأى الأمريكيين يسقون ويزرعون فهب يحرض ضد الملك (الذى خان الأمانة وباع الوطن للأجنبى وقد رأيت بعينى – كما يقول الشيخ باز – الأمريكان يستولون على الأرض ويزرعونها فى الخرج ويسخرون العمال السعوديين ويشقون الطرق ويستعملون الماء النفيس كما يحلو لهم .. فهل من حق الملك أن يبيع بلادنا وميراث أجدادنا للمشركين ) .. هكذا قال الشيخ باز ..

هنا أرسل الملك يطلب إحضار الشيخ فى سيارة خاصة ، ولكن الأمر لم ينفذ فأرسلوا له سيارة نقل ، وقد رفض الشيخ أن يركبها مصراً على أن يعامل باحترام ، فاستجاب الملك وأرسل له السيارة الخاصة وعندما جاء الشيخ "أبوباز" ، استقبله الملك محاطاً بالأمراء ورجال البلاط والمستشارين والحرس والعلماء وأعضاء محكمة الشرع العليا ..

وهنا قال الملك :

" إذا كان لديك ماتعترض عليه فقله علانية ، لأن الإسلام يطلب مواجهة

الحاكم لا توجيه الاتهامات من خلف ظهره "..

ووقف الشيخ فى مواجهة هذا الحشد الملكى وقال :

" أن الملك يبيع البلاد والناس للكفار ، وهذا يخالف التزاماته كحاكم مسلم وحامى الحرمين والمشاعر " .

وقد تركه الملك يتكلم دون أن يقاطعه ، فلما سكت كرر عليه الملك السؤال هل قلت كل ما عندك ؟.. فأجاب : نعم "..

عندها نزل الملك عن العرش وتقدم فوقف إلى جانبه قائلا ..

" أنا لست الآن إلا مجرد مسلم أطلب أن يحكم بيننا بالشرع ، أنا عبد العزيز أطلب من القضاة والعلماء أن يفصلوا فيما بيننا " ..

ثم التفت إلى العلماء وقال :

" أفتونى .. هل استخدم النبى غير المسلمين من أهل الكتاب والمشركين ؟" .. ثم استعرض الملك الحالات التى وردت فى السير ة ..

فرد العلماء بالإجماع .. إن الملك صادق فيما قال .. فعاد الملك يسأل :

" فهل خرجت أنا على الشرع ، اذ تبعت سنة رسول الله ، واستخدمت خبراء أجانب للعمل لحسابى تحت توجيهاتى لزيادة موارد البلاد ، ويستخرجون لصالحنا المعادن والنفط والماء وما سخره الله من خير لبلادنا ؟." ..

فرد العلماء : إنه لم يخطئ ..

هنا انتهى دور العدل ، وحكم القضاء بتجنى الشيخ وجاء دور الحاكم.. الملك .. عندئذ اعتلى الملك العرش واسترجع لقب الملك وسأل الشيخ .. هل رضيت ؟.

فقال الشيخ : " إنه يطيع قرار العلماء ولكن لم يطمئن قلبى " ..

فقال الملك : " لقد احتكمت للشرع ، وقرر علماء الشرع أننى على حق وأنت المخطئ فإذا لم تعتذر خلال ٢٤ ساعة فسأقطع رقبتك " .. وأخذ الشيخ تحت الحراسة وانفض المجلس .

لكن الملك يتصرف بعد ذلك تصرف الحاكم والأب الذى يعامل مواطنيه بالرحمة والكرم فيستدعى الشيخ من محبسه ويجلسه إلى جواره ثم يتحدث معه متلطفاً شارحاً له أن مايفعله لا يسئ إلى الدين أو البلاد بل هو لخير البلاد وبعد أن ينتهى من الشرح والتفسير يغدق الهدايا على الشيخ ثم يرجعه مكرماً معززاً إلى منزله .

هكذا كان عبد العزيز آل سعود .. قوياً فى الحق عادلاً فى الحكم كريماً بلا حدود .. ويمكن للمرء أن يتوقف كثيراً عند أقوال كثيرة للملك تكشف حكمته ونفاذ بصيرته حتى إن النفس والعقل العربى والإسلامى يتمنيان لو أن عبد العزيز موجود الآن بين ظهرانينا ليعالج مدى ما يعانى منه المسلمون والعرب من تخبط وانهيار وضياع .

عندما توجه لفتح مكة .. يقول :

" إنى مسافر إلى مكة لا للتسلط عليها بل لرفع المظالم والمغارم التى أرهقت كاهل العباد ، إنى مسافر إلى حرم الله لبسط أحكام الشريعة وتأييدها ، فلن يكون بعد اليوم سلطان إلا للشرع الذى يجب أن تطأطئ له جميع الرؤوس " .

ويقول عن مستشاريه :

" أريد رجالاً يعملون بصدق وعلم وإخلاص حتى إذا أشكل على أمر من الأمور ، رجعت إليهم فى حله وعملت بمشورتهم فتكون ذمتى سالمة

والمسئولية عليهم وأريد الصراحة فى القول "..

ثم يتحدث عن الحاكم وعلاقته بالعلماء والمستشارين فيقول :

" متى اتفق العلماء والأمراء على أن يستر كل منهم على الآخر ، فيمنح الأمير الرواتب والعلماء يدلسون ويتملقون ، ضاعت أمور الناس وفقدنا والعياذ بالله الآخرة والأولى " ..

ويضيف :

" لا يفسد الملك إلا الملوك وأحفادهم وخدامهم والعلماء وأعوانهم وإنى والله لا أود أن أكون منهم " ..

ويتناول الموضوع نفسه فى مقام آخر فيقول :

" الحقيقة إن من أسباب خراب المسلمين وتخاذلهم ، تقهقر الأمراء والعلماء ، فالأمراء يبحثون عن منافعهم والعلماء يذلون لهم ولا يبالون فى النصيحة والإرشاد .. إن الأمراء يفتشون على المناصب والمراتب والعلماء يعملون على نيل المآرب ، ولكن هؤلاء وأولئك ضلوا الطريق " ..

وهو يؤكد على أهمية الشورى فى الحكم وقيمتها هذه الشورى للحاكم وللرعية على السواء .. فهو يقول :

" أما السير على غير المشورة ، فهو مجلبة للنقص والهوى ، وهوى النفس ونحن نريد من المشورة أن نجمع بين السنة وبين ما أمرنا الله به فى قوله : ( وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ) ، وأعظم القوى التناصح والبقية الصالحة ، لأن كل شئ أساسه الإخلاص والنصح ".

وكان – رحمه الله – يدرك تماماً أهمية اتصال الحاكم بالرعية اتصالاً مباشراً لا وسيط أو واسطة فيه ، لأن ذلك يقطع الطريق على أهل السوء

والمنفعة .. وهو يقول فى ذلك :

" إن التباعد بين الراعى والرعية يدع مجالا للنفعيين فيجعلون الحق باطلاً ويصورون الباطل حقاً ، حيث إذا لم تكن هناك صلة بين ولاة الأمورو الآهليين ، وجاء أى شخص من أرباب المقاصد السيئة وقال لولاة الأمور :" إن المسألة الفلانية كيت وكيت فمن أين يعلم ولاة الأمور ؟ .. إن الأمر على الضد من ذلك ، وإن هذا النفعى قد قلب الحقائق .. أما إذا اختلط الشعب مع ولاة الأمور ، فإن هؤلاء النفعيين الدسّاسيين يخشون من مخاطبة أمرائهم بعكس الواقع ، ويخافون من أن ينكشف الغطاء فتعرف نياتهم السيئة ، إن بعض الشياطين هم من خدمة ولاة الأمور الذين يخافون على مراتبهم وكراسيهم وجعل مايرمون إليه هو قضاء مآربهم بأية واسطة كانت ، فاختلاط الرعية بالحكام يقضى على أولئك من جهة ويسهل الأمور ويحل المشكلات من جهة ثانية " .

وتمضى السنون بالحاكم العادل ويغلبه الوهن والمرض ، فلا يمضى من مكانٍ إلى آخر إلا على مقعد متحرك كان يطلق عليه " الحصان " ، وكان هذا المقعد قد أهداه له الرئيس الأمريكى " روزفلت " ، عندما صعب عليه المشى ..

لكنه ومع مرضه وضعف الصحة والإحساس بالملل من الحكم والناس لاينسى أنه الراعى وأنه الكريم الجواد دائما فيصدر تقريراً يبين فيه لكافة الناس كيفية مخاطبة السلطات ، إذ يجعل هذه المخاطبة على نفقة الدولة وهذا مالم تعرفه أعرق الدول المتقدمة فى العالم .. وهكذا يأتى منشور الملك الذى طلب أن يعلق على أماكن التجمع .. يقول فيه :

" من عبد العزيز بن عبد الرحمن بن سعود إلى شعب الجزيرة العربية ..

على كل فرد من رعيتنا يحس أن ظلماً وقع عليه أن يتقدم إلينا بالشكوى وعلى كل من يتقدم بالشكوى أن يبعث بها بطريق البرق أو البريد المجانى على نفقتنا .. وعلى كل موظف بالبريد أو البرق أن يتقبل الشكاوى من رعيتنا ، ولو كانت موجهة ضد أولادى أو أحفادى أو أهل بيتى .، وليعلم كل موظف يحاول أن يثنى أحد أفراد الرعية عن تقديم شكواه مهما تكن قيمتها أوحاول التأثير عليه ليخفف من لهجتها فإننا سنوقع عليه العقاب الشديد " .

وفى عام ١٩٥٣ ، وكان الملك عبد العزيز قد بلغ ثلاثة وسبعين عاماً ينتقل فى هدوء إلى جوار ربه بعد أن أقام دولة وجعل من صحراء الجزيرة واحة يقصدها الجميع .. الدانى والقاصى .. رحمه الله رحمة واسعة بما قدم للإسلام وللعرب ..

* * *

**تم بحمد الله**

# الفهرس



* * *

* لا يقاس عمر الإنسان بعدد السنين التى يعيشها ، وإنما يقاس بما حقق من إنجازات تشهد له فى حياته وبعد موته بما قدَّم للبشرية من نفع وقدوة .

* وفى هذا الكتاب نمازج لهؤلاء الذين أضاءوا الحياة بنور العلم والحكمة ، ممن يعتز بهم التاريخ أى اعتزاز ، وقد رجونا بهذا العرض الموجز لأعلام الحكماء أن يكونوا للقارئين مُثلاً تحتذى ، ودافعاً إلى صدق العطاء وصفاء النفس والقدوة الحسنة .





بالمملكة العربية
مكتبة دا
ت : ١١١٢٠٧

مكتبة معروف
الإسكندرية : ٤٨١٠٨٢٨ / ٤٨٤٦١٢٥ فاكس ٤٨٦٠٠٨٩
القاهرة : ٢٦١١٢٢٩ ص.ب ٣٧٠ الإسكندرية
e - mail : marouf- book @ hotmail . com